جمال الغيطانى

حكايات الغريب

...در عن
...جلة الاذاعة والتليفزيون

من أدب الحرب

سلسلة شهرية
تصدر عن دار مجلة الاذاعة والتليفزيون

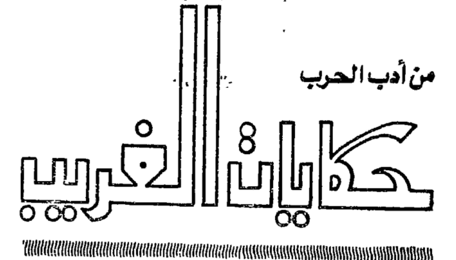
رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
أحمد بهجت

نائب رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
سامي محمد

كتاب مجلة

الاذاعة والتليفزيون

من أدب الحرب



• جمال الغيطاني •

الاخراج الفنى : مكرم شحاته
الغلاف تصميم الفنان :
جودة خليفة

إلى الشهيد ..

ابراهيم الرفاعى

أجزاء من سيرة عبد الله القلعاوى



« تقرير عام عن الأعمال القتالية للمجموعة السابعة »

.. من المعروف ان جميع من تحدثوا عن هذه المجموعة اطلقوا عليها اسم « مجموعة القلعاوى » بل ان المتخصصين ، ومنهم بعض قادة الوحدات والقطاعات التى عملت من خلالها المجموعة ، وطيارو الهيلوكبتر الذين اشتركوا فى نقل الرجال ، كلهم لم يستخدموا الاسم الرسمى عند حديثهم عنها ، لهذا فاننا نميل الى الأخذ بتلك التسمية التلقائية التى رددها المواطنون أيضا .. فأعمال المجموعة لاقت صدى من نوع خاص بينهم ــ بغض النظر عن الاسم الرسمى المستعمل فى المكاتبات السرية وخطابات الشئون الادارية . وكما تفيد مصادرنا فى الأرض المحتلة أن العــدو أطلق عليها اسما رمزيا هو « الفرقة الخاصة » ومن الثابت أن معلوماته حول المجموعة مضطربة جدا . لم ترق الى مستوى اليقين من وجهة نظره ، ويرجع هذا الى أسباب عديدة ليس هــذا مجال تفصيلها ، لقــد اتسمت الاعمال القتالية بملامح خاصة وحتى نستطيع الالمام بطبيعتها لا بد من اشارة أولية الى مسرح العمليات .

١ ــ نطاق العمليــات

جرت العادة والقواعد العسكرية على تكليف كل وحده مقاتله بمهمه معينة يحدد لها اطار معين يضم أهدافا منتقاة للتعامل معها. ينطبق هذا على كافة التشكيلات بدءا من السرية الى الفرقة الى الجيش . لكنا لا نجد هذا منطبقا على مهام مجموعة القلعــاوى . يبدو قولنا واضحا من الخريطة الضخمة لمصر والبلاد المحيطه بها والتى تحتل ــ حتى الآن ــ جدارا بأكمله من غرفة القلعــاوى ، صنعت هذه الخريطة من الجبس البـــارز الملون ، حملت دبابيس حمراء صغيرة فوق أسماء بعض المناطق بسيناء . كل دبوس يعنى عملية تمت ضد هدف ، توجد مجمــوعة أخرى من الدبابيس الخضراء وهذه تعنى أهدافا سوف تهاجم . من الخريطة يتضح أن مسرح عمليات المجموعة سيناء كلها . وتجدر الاشارة هنا الى أن عددا من أبرز الخبراء العسكريين الذين زاروا البلاد بعد الحرب وتوفرت لديهم بعض المعلومات أبدوا دهشة واعجابا بالمجموعة ، ونورد فيما يلى تلك السطور التى كتبها الجنرال هانز كريستيان ، رئيس معهد الدراسات الاستراتيجيه والعسكرية ، الذى زارنا خلال الفترة القصيرة الماضية .

« .. يبدو واضحا ان تلك المجموعة من الرجال قــد خلقت لنفسها قوانينها الخاصة ، اذ حطمت الكثير من القواعد العسكرية المتعارف عليها ، وللاسف غير متاح الآن الاطلاع على ظروف تكوينها وعملها .. »

ونقول أن مجموعة القلعاوى هاجمت أهدافا تقع فى راس محمد بأقصى الجنوب من سيناء . وأهدافا أخرى فى بالوظة ورمانة شمال شبه الجزيرة ، فى لسان التمساح ورأس العش ، وسدر ، وايلات، وعلى امتداد منطقة الخليج ويقول الذين عملوا مع القلعاوى ان الخليج لعبته ، وتتردد أقوال لم نذكرها كحقائق مفروغ منها ــ

لأسباب عديدة ـ انه قام بعديد من المهام فى مناطق مختلفة من العالم ضد العدو الصهيونى ، ليست بالضرورة أعمال قتال ، انها تضم مهام استطلاع وتعقب بعض العناصر المعادية ويوجد عدد من البرقيات لدى أسرته وصلت فى الاسابيع التالية ليوم الجمعه ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، من فدائيين فلسطينيين ، ومقاتلين من جنسيات مختلفـــة ، وقع بعضهم بالأحرف الاولى ، واذا ما أتيح للمهتمين بسيرته مقابلة قادة الوحدات الذين واجهوا العدو من رأس العش شمالا حتى مواقعنا المطلة على البحر الأحمر . فانهم سيسمعون قولا يتردد كثيرا « لقد مر القلعاوى من هنـــا » ، أى أنه استخدم المنطقة التى يرابط فيها التشكيل كقاعدة انطلاق ، سيجدون أنه عبر فى توقيتات مختلفة فمن نقطة معينة تقع فى مواجهة لسان بحيرة التمساح عبر مع الرجال أربع مرات خلال فترة زمنية قصيرة ، عبر فى الصباح ، فى الغروب ، فى الظهيرة ، فى منتصف الليل ، أول ضوء وفى آخر ضوء ، ونظرا لأهمية شهادة هؤلاء القادة نورد فيما يلى بعضا مما قالوه . ومعظم هذه الشهادات جمعها رجال القلعاوى على أشرطة كاسيت صغيرة بهدف الاحتفاظ بها كوثائق .

* * *

يتحدث العقيد أركان حرب (م.أ.ع) قائد تشكيل مقاتل فى منطقة البحر الأحمر .

.. أتذكر هذا الوقت بدقة فالثوانى والدقائق ذات أهميـــة خاصة ، بالضبط الساعة الثانية صباحا وخمس دقائق عنـــدما وصل القلعاوى ورجاله ، الليل عندنا مختلف لا يوجد أى مصدر ضوء صناعى على بعد عشرات الكيلو مترات ، لا يبدو لا معا الا النجوم وضوؤها الخافت وعددها الكثير . كل شىء يعمق صوت الليل حتى صوت البحر الغامض عندما يصـــطدم بالشـــاطىء الصخرى ويرتد عنه ، يحوى تحذيرا . هنا يكتسب الصوت الآدمى

العادى ابعادا ودلالات.أن تسعل فهذا يثير انتباه الكمائن والدوريات المتنقلة وجنود الملاحظة لهذا .. (فترة صمت) .. أوشك الآن أن استعيد الاصوات المحدودة الخافته التى صاحبت مجىء عبد الله عدد الرجال أكثر مما قدرت . وقف صامتا . لم يصدر أمرا بصوت عال ، يتحرك كل منهم وكأن ثمة اتصالا خفيا يشدهم اليه . كأنهم يقرأون فى وقفته . فى استدارته ، فى عقد يديه أمام صدره تعليمة أو أوامر معينة ، اذكر وقع خطواتهم الخافتة ، يمرون أمامى ، لا تبدو منهم تفاصيل الا للحظات مارقة . يتجهون الى القوارب الراقدة فى البحر والظلام ، كأنهم يتجهون لقتال الليل نفسه . يدخلون فيه . سمعت الكثير عن القلعاوى ،لم أره ، هو أقدم منى باربع دفعات كما ان مجال الخدمة الخاصة جعلنى لا ألتقى به . لست أنا انما معظم زملائى حتى زملاء دفعتى ، اذا ذكر أحـــدنا أنه رآه فيقترن هذا بعمل قتالى . اذا رآه أحدنا فيتبادر الى ذهنه خاطر لا يمكن نفيه .. الله ، ان القلعـــاوى ما زال يعيش ، فى هذه الليلة وقفت على مسافة متر واحد من القلعاوى . لم أسأله عن المهمة التىسيقوم بها الآن لان من طبيعة اعماله السرية ، أو الطرق التى يسلكها فى الناحية الأخرى ، مهمتى محدودة تغطية الرجال أثناء الابحار وتأمين عودتهم .. (صمت) ارى القلعاوى وكأنه أمامى ، عيناه تنظران فى خط لا يحيد ، وجهــه كان متطلعا الى أعلى باســـتمرار حتى لو أطرق ، يبدو كأنه يقف دائما فى وضع صفا ، حذاؤه جلدى ، ثيابه مشدودة الى جسده ، سترته مليئة بجيوب عديدة . هو مصمم هذه الثياب ، تتسع لأكبر عدد من القنابل والذخيرة وأدوات القتال عندما اتجه الى نقطة الابحار لاحظت شابا قصيرا خفيف الحركة يتبعه . صوت المجاديف . هدوء السواد لا يكشف اتجاههم ، ثقل الليل ، لا فرق بين المياه والأرض . المادة واحدة فيما عدا رائحة البحر . أصغيت طويلا ، أبحارهم أضاف عمقا للظلام والليل . هناك فوق نقطة معينة ، فى اتجاه محدد .. يتحرك القلعاوى ..

* * *

نص محادثة لاسلكية جرت بين القلعاوى .. وأحد الضباط الكبار الذى وقف يتابع عملية للمجموعة من فوق الشاطىء الغربى للخليج . تم تسجيل هذه المحادثة فى ديسمبر ٦٩ .. فكت رموزها فيما بعد .

القلعاوى : مستمر ..

الضابط : نشاط الطيران فوق المنطقة .. أفضل التقدم نحو مكان الابحار .

القلعاوى : استطلاع الهدف ضرورى ..

الضابط : انهى العملية .

القلعاوى : (صمت) .

الضابط : عد يا عبد الله .. عبد الله .. سامح وليلى فى انتظارك ..

(القلعاوى يغلق الجهاز ..)

* * *

يتحدث المقاتل (ل) أحد رجال المجموعة :

بعد أن اختارنى للعمل معه . وفى أول لقاء به . قال ان هذه المجموعة سوف تحارب عدو مصر فى كل مكان . وتلاحقه وتضربه ، الجميع هنا يقضون أيامهم اما استعدادا للقتال أو فى حالة قتال فعلى . كل منهم جاء الى الحياة ليقاتل . طلب منى أن أحدثه عن نفسى . وفى البداية ظننت أنه يريد الالمام بالمعارك التى خضتها لكنه رفع ملفا أزرق ، قال انه يضم أكثر مما سأقول ، فهمت ، حدثته عن والدى . عن الخطابات التى أرسلها كل شهر الى عيالى . ما اشتريته لهم فى بداية أجازاتى حدثته عن انتظار أهلى عند الجسر ، عن رائحة الغيطان الليلية ورائحة الصحراء ، لون المساء فوق قريتنا الأصوات الليلية فى الجبل ، مرور الهواء بين شقوق الصخر وتدحرج الحصى وما يتركه فى النفس عواء ذئب ضال أو باحث عن فريسة ،

تكلمت عن الساقية القديمة التى ركبتها طفــــلا ، ظننت عجلتهــا ضخمة جدا ، والبئر بلا نهاية ، بعد سنين كلما مررت بهـــا أدهش وأنا أرى بئر طفولتى السحيقة مجرد حفرة ، حدثته عن رائحة الفول الأخضر وامتلاء الكوب حتى الحافة بالمـاء وصرير عجلات الترام عند المنحنيات وحدود المدينـــة وأول امرأة نراها بعد عودتنا تمشى فى الطرقات الآمنة ، الرجال فوق أسطح القطارات . وعشرات الصبية يركبون جرارا زراعيا . فلاحات حملن قصعات المونة وذهبن لبنـاء قاعدة صواريخ . صوت عجـوز منهن تقول : « ما هو ده حيحوش البلا عننا » ، جندى يجلس القرفصاء فوق رمال الصحراء ، نفس جلسة أبى بجوار المصرف المجاور للزراعيـــة . لم يستوقفنى ، لم يستفسر . لم يطلب ايضاحا ، لا . . لم يصمت ، اذكر الموقف الآن فأذكر أنه بادلنى الحديث مع انه لم يلفظ حرفا . تجعيدتان عنـــد ركنى فمه كأنه أصغى الى خبر مؤثر . أو حزن قديم أو تســـاؤل محير أو حنين الى مسقط رأســـه . يقولون ان هاتين التجعيدتين ظهرتا بعد موت عاصم ، زميل دراسته . زميل الكليـــة ، مؤسس المجموعة معه وســـاعده الأيمن فى كافة العمليات التى تمت حتى ذهابه فى مياه الخليج . سمع صوت سقوط جسم فى الماء ولم يسمع أحد صرخة أو استغاثة ، منذ هــذا الحين اختفى عاصم ، كثيرا ما لمحته يقف عاقدا يديه ، أراه من بعد ولا أتبين ملامح وجهه . لكننى أثق من وجود هذا البحث فى عينيــه ، ربان يستطلع أرضا لم تظهر بعد ، يستمر واقفا لفترة ثم يستدير فجأة . لا أستطيع أن أتخيله يمشى متسكعا فى ميـــدان مزدحم ، يســافر الى مصيف ، يدخن سيجارة أو نرجيلة بمقهى . كما عرفنا أن القلعاوى لم يحصل على اى اجازة ميدانية منذ عام ١٩٦٧ . مع أنه ينظم اجازاتنا بنفســه ، ويمنح من يسافر بعيــدا يومين اضافيين حتى تكفى مدة الســفر ، أقول الآن اننى عندما أفارق المجموعة متجها الى بلدتى أشعر بخجل لأننى أسافر وأتركه . فى أيام الجمعــة يجىء مع ســـامح وليلى ،

تعرفهما ويعرفان كلا منا باسمه ، بماذا يوحى لنا سامح ؟ أراه دائما كأنه رجل كبير صغير الحجم ، عندما جلسنا فى صالة البيت . أضم شفتى بأسنانى جاء ممسـكا عددا من النياشـين والأنواط وراح يقدمها الى الحاضرين متحدثا عن المناسبة المرتبطة بمنح كل منها الى القلعاوى الآن يتحدث كل منا اليهما بالتليفون مستفسرا عما اذا احتاجا الى شىء ما ، أدير قرص التليفون متوقعا صوت القلعـاوى وعندما يرد سـامح أو ليلى أحاول أن أبدو ظريفـا ، يقولون ان القلعاوى يتصل بهما قبل خروجـه الى العدو لكن لم يره أحـد يحدثهما . عندما يغلق الباب تبدو شظايا الضوء من خلال المساحات البيضاء التى بهتت من الطـلاء الأزرق ، يطلب شايا ، دخلت عليـه مرة . رأيته منبطحا فوق الأرض . حوله خرائط . كتب مفتوحة لم تغلق ، مسـاطر أقلام ملونة ، أدوات هندسـية ، شريط طويل من صور فوتوغرافية متعاقبة ربما التقطها بنفسـه اذ أنه قام بتصوير بعض أهداف العدو بمفرده . أنا لم أصحبه مع أن مهمتى القتاليـة تغطيته خلال الهجوم فى الليل . فى الصـباح . فى العصر . بمجرد انتهائه من وضع خطة العمل . تصبح مجرد أوراق جاهزة للتصديق عليها من قبل المستويات الأعلى . نراه يخرج من المكتب ، يتحدث الى بعضنا ، يصعد التبة الرملية بسرعة ، يقود دراجة بخارية يلف بها أرض التـدريب مرات . ومرات . يدرك الرجال أن ثمة خطـة اكتملت . لكل منهم دور محدد الآن . ان القلعـاوى يبدو مرحا . خفيفا . ربما صاح على أحد الرجال بدون أية مقدمات يسـأله عن أحواله ، عن صحة أولاده ، مصاريف المدارس ، ربما استفسر عن أحوال أم مريضة بالسكر أو أب يعـانى متاعب الشيخوخة . عن تفاصيل لمشروع زواج تبطىء خطواته بسبب عـدم الحصول على مسكن أو متاعب مع أهل العروس . فى البـداية يفاجأُ المنضم الى المجموعة حديثا بأسلوب القلعاوى المفاجىء . المباغت تماما كهجومه أو ظهوره فجأة وراء خطوط العدو ، اعتدناه ، يعرف كل شىء عنا ،

أسماء أطفالنا ، عدد الأقساط التى يسددها كل منا ، بل قيل أنه يحدد دور كل منا طبقا للحالة النفسية للفرد . أثناء عبورنا المياه أو مشينا فوق الأرض هناك . برغم تباعد المسافات بين الأفراد . فان القلعاوى يتمثل الحالة النفسية التى عليها مقاتل الاستطلاع فى المقدمة أو فوزى وحسان فى أقصى المؤخرة تماما كالقلب يدفع الدم الى أقصى أطراف الجسم لكن هل برى الدم أثناء وصوله الى أطراف الأصابع ؟ كل مقاتل يتحرك باتجاه الهدف كوحدة مستقلة . شعور يتملكه بأن القلعاوى يراه . يدرك ما يتردد بين طيات نفسه ، يرصد رجفة الخوف ، دفقة الشجاعة . شجن ذكرى معينة . ماذا يجعلنى مستعدا للمشى أياما ؟ افنى فى قتال ، ماذا يجعلنى أوقن اننى عشت بما يكفى ولو فقدت عمرى فسوق أقبل هذا ببساطة ، أهو الوطن ، الحقد على العدو ، أهو التاريخ الذى جعله القلعاوى مادة فى برنامج تعليمنا ، أهى طريقة حديثه عن شهداء المجموعة وضرورة الثأر لهم . يقول أحد زملائى . بعد كل حديث للقلعاوى أشعر أننى ازددت ثقافة ووعيا ، قال القلعاوى باستمرار ، لابد من معرفة العالم ، هناك شىء مباشر يمكننى أن أشير اليه ، أمسكه بيدى ، أحسه ، أشعر بوقع نظراته . . له كيان وحركة ووجود . يمكننى القول اننى افعل هذا لأثبت له أننى كفء ، اننى عند حسن ظنه ولم يخطىء فى اختيارى مقاتلا الى جواره . أرى القلعاوى أثناء سفرى واقفا فى خضرة الحقول ينظر الى المجهول من خلال منظاره ، أراه بيننا فوق نقطة ما من سيناء . نفاجأ بهجوم مضاد . أتقدم منه . أقول له . . « يا أفندم أسمح لى أن أحمى انسحابكم » ، اقبل راضيا وأنا أعلم ما ينتظرنى بعد عدد معين من الدقائق . قالوا عنه انه محجب وأن من يقاتل معه لا يصاب وأن رجلا سودانيا عجوزا أعطاه حجابا وان هذا الحجاب يحمله فى مكان ما من ثيابه وانه يمنع نفاذ الشظايا الى جسده . لم أر الحجاب ، قيل انه قادر على رؤية الرصاصة والشظية فى مسارها أنه ينفذ بين الطلقة والطلقة . قالوا

انه عاش دائما بعقلية من يمر مرورا عابرا بالدنيا لهذا اندفع دائما في اتجاه الخطر . قال عنه البعض . « القلعاوى وش موت » . أراه صامتا كأنه يطمئننى ، أسمع صوته دائما فى أذنى . وفى لحظات انتقالى من اليقظة الى النوم كل ليلة . مع أنه لم يتحدث الى كثيرا ، لا أذكر صوته غاضبا . غضبه صامت باتر ، لم يتحدث الى كثيرا أنا اقرب الناس اليه فى وضع الهجوم . لم يرتفع صوته فى تمام الساعة الثانية عشرة والربع من ظهر الجمعة ١٩ أكتوبر . قال كلمة واحدة صداها متصل فى أذنى حتى الآن . واضح كالطلقة الكاشفة التى تجرح صدر الليل بلونها الأحمر .

« غطينى .... » .

* * *

نص حوار جرى بين اثنين من ضباط مخابرات العدو امكن الحصول عليه ... ونرى ضمه الى مقتطفات السيرة لأهميته .

المكان : مقهى قديم بالشارع الرئيسى بمدينة العريش المحتلة .

التوقيت : الساعة السادسة بعد ظهر أحد أيام نوفمبر الأولى عام ١٩٧٣ .

ضابط (١) : اننى أميل الى وضع الأمور فى حجمها الطبيعى .

ضابط (٢) : ما أسهل هذا بعد وقوع حدث كبير .. حرب .. معركة .. الحقيقة تضيع تماما .

ضابط (١) : كنت ستقول شيئا .. ما هو ؟

ضابط (٢) : تبدو الحقائق شاحبة بعد انتهاء الحدث ..

ضابط (١) : حصولكم على جثته . أمر لا يقل أهمية عن موته ..

ضابط (٢) : قلت انه من السهل اقتراح كل شىء بعد انتهاء الموقف نفسه .

ضابط (١) : وددت لو تأملته حيا أو ميتا .. فى معلوماتك عنه هل تعرف كم عدد الساعات التى بامكانه أن يمشيها ؟

ضابط (٢) : توشك أن تردد بعض ما توهمه رجالنـــا الذين فرغناهم لقتــاله .. لا أعرف بالضبط قدرته على المشى .. بعضهم نسب اليه أمورا خارقة كقدرته على المشى أسبوعا متصلا فى أصعب الأراضى .. ستقول لى قدرات الانسان وامكانيــاته . لكننى أحفظ .. أذكر عبارة رددها عدد من الأسرى أثنـــاء استجوابهم .. قالوا ان ثقته بقدرات الانسان لا حدود لهـــا . وهذا أول شىء يقوله لمن يعمل معه .

ضابط (١) : انتهى كل شىء الآن .

ضابط (٢) : وما زلت أقول .. ان الحقيقة لن تبدو كما كانت عليه أبدا ..

ضابط (١) : ربمـــا ..

* * *

وعندما علم العقيد أركان حرب (. ق) بمشروع جمع سـيرة عبدالله القلعاوى .. طلب أجازة لمدة اثنتى عشرة ساعة لنقص حادثة معينة .. لهذا نوردها كنتيجة لاصراره . وربما تبـــدو فى غير موضعها .

أنا مدين له بحياتى . شــهد النهاية والبداية . لم أره الا مرة واحدة عندما حدث هذا منذ خمسة عشر عاما . أشتركت فى دورية سير لاختراق منطقة وعرة من الصحراء . أمامنا بدا اللون الأصفر لا نهائيا . العرض كالطــول . نمشى . وخط الســـماء انطبق على ثابت لا يتغير ، تجردنا من ثيابنا قطعة قطعة ، حاولنــا حفر الرمال لندفن رءوسنا ، شربنا بولنا ، تشققت حلوقنا ، الشمس كمصباح قوته آلف آلف وات لا يمكن الهرب منه ، لا يمكن اليقظة ولا النوم ، وكما قيل لنا ان القلعاوى الذى اشترك كعضو فى هيئة التحكيم أبدى قلقا . لم يقلق كما نقلق نحن . لم تتماسك أصابعه ثم تنفرج ،

لم ينقل ثقل جســـده من ســـاق الى أخـرى يقولون ان عينيـه ثبتتا فى اتجاه واحد مؤدى الى بطن الصحراء . فجأة طلب من رئيس الهيئـة السماح له بالاتجاه الى عمق اللانهائيـة بحثا عن المفقودين . بسط الخرائط . يقول الذين شهدوا الموقف انه اختـار اصعب الطرق الذى يتعـامد على خط سير الطابون ، حمل بعض زمزميات الميـاه وعددا من القنابل الصوتية ، للأسف لم يحدثنى عما لاقاه فى الجبل والصحراء . ما أعرفه انه مشى ساعات متصلة فى درجة حرارة تقارب الأربعين وعلى مسافات معينة يفجر قنبـلة حتى يلفت أنظارنا الى أن هناك من يبحث عنا . وعندما سمعنا انفجار القنبلة تصايحنا ، وقفنا عرايا تماما ، بدا القلعاوى لنا كأنه يخرج من باب بيت ظليل مستفسرا عما جرى ؟ . قدم الينا جرعات قليلة من الماء فى غطاء الزمزميات . جرعات لا تكفى لبل أفواهنا . تطلعنا بشراهة الى الزمزميات المغطاة بقماش أصفر سميك . بدا حازما حتى أننا لم نفكر فى طلب المزيد تصور حالتنا ، الجوع ، الظمـأ ، الانهاك ، الخوف ، مع هذا عدنا مع القلعاوى مشيا على أقدامنا .. قبل وصوله بدا مستحيلا أن نخطو مترا واحـدا ! مشينا سـبع ساعات معه . لم نتوقف لحظة لم نقعد لم يشجعنا انما بادلنا حديثا وديا عاديا ، بين الحين والآخر يقدم لنا قليلا من الماء فى غطاء الزمزمية المحدود . تحدث الى الرجلين اللذين جاءا معه حديثا موجزا . للأسف لم أعرف من هما ولا أدرى مصيرهما الآن . تقـدمنا القلعاوى بخطوات ، كأن لغـة خفية بينه وبين رمال الصحراء ووحشتها . خلت الأرض من العلامات المميزة والكثبان ومع ذلك بدت خطواته راسخة فى اتجاه اليمين واليسـار والى الأمام . فى الصعود والنزول ، أحتملنا المشى معه ، كيف لا أدرى حتى الآن . لم يشك أحدنا ، لم يقل لفظا أو ، آهة .. هذا هو القلعاوى ..

* * *

توجهت اللجنة الخاصة بجمع السيرة الى المقاتل (ك.ى) رئيس عمليات المجموعة السابعة . طلبت منـه كتابة فصل عن أراء القلعاوى العسـكرية وانطباعاته عن الحيـاة والناس كما عرفها (ك.ى) الذى يعتبر من أوثق الناس صلة به . لكن رفض تقديم أي معـاونة . قال ان كثيرا من الفضـوليين وكتـاب القصص والصحفيين السطحيين سيتخذون من هذه المادة فرصة للكتابة عن القلعاوى ، ماذا سيقولون عنه ؟ انه عاش بطلا ؟ انه شجاع ؟ انه قام بعبور القناة وسيناء أكثر من تسعين مرة . هل هذا مـا يجب أن يقال عنه حقيقة ؟ ثم ينسون كل شيء . قال (ك . ى) انه لن يشارك فى استباحة دم أقرب الخلق اليه . قال ان القلعاوى يجب أن يذكر بطريقة خاصة أخرى انه يعيش هنا ـ خبط صدره براحته ـ فى رجال المجموعة . فى كل من خدم معه ، ليتعقب سيرته من يرغب . لكن (ك . ى) سوف يذكرها بما يليق بالقلعاوى ، لن يبوح بأى شيء لأى لجنة ، أو صحفى . .

* * *

قسم به معلومات عن الأوسمة والنياشين :

فى حجرة الاستقبال البسيطة بمنزل القلعاوى (يلاحظ بساطة الأثاث وخلو البيت من كل ما هو زائد عن الحاجة) ويرجع البعض هـذا الى الظروف التى تم فيهـا زواج القلعـاوى ، اذ أن أسرة زوجته عارضت الاقتران به . فاضطر الى فرض الأمر الواقـع عليهم ، تحمل القلعاوى كل تكاليف تكوين البيت ويبدو أنه استكمل بعض الحاجيات خلال العام الماضى اذ توجـد فواتير شراء دولاب كتب ، وراديو ضخم به بيك أب وتاريخ هذه الفواتير يعـود الى شهور خلت ، ويقول البعض الآخر ان البساطة ترجع الى شخصية القلعاوى ، لم يره أحد يعتنى بالمظاهر . بل انه لم يرتد هو أو امرأته أو عياله اى ثياب مستوردة . وعلق على هذا يوما فى حديثـه الى

أحد أقاربه قائلا : اذا لم نرتدى نحن مصنوعاتنــا الوطنيـــة فمن سيرتديها اذن ؟؟ .. فى مواجهة الصالة توجد مجموعة كبـيرة من براءات النياشين والأنواط التى حصل عليها عبد الله بعد اسبوعين من ١٩ أكتوبر أخرجت السيدة ماجدة القلعاوى هــذه البراءات والنياشين . وقضت ليلة كاملة تعلقها بعناية ، تملأ فمها بالمسامير الصغيرة ثم تتناول واحــدا وراء الآخر لتدقه برفق حتى لا توقظ سامح وليلى ، ويبدو ان ابنى القلعاوى عرفا الخبر فى هذه الليلة ، من الثابت انه لم يرغب فى عرض هذه الأنواط والنياشين ولم يعلقها على صدره نظرا لارتدائه الأفرول باستمرار . لكن شوهد مرة يتجه لمقابلة أحد القادة الكبار ويعلق مجموعة من النياشين (تشخلل) على حد قول أحد زملائه الذى قال ان أى مقاتل يود لو حصل على وسام النجمة العسكرية مرة واحدة ، القلعاوى حصل عليه ثلاث مرات . ويمكن القول انه لا يوجد مقاتل على امتداد تاريخ الجيش المصرى حصل على مثل هذه المجموعة ، فى هــذه الليــلة وضــعت السيدة ماجدة نموذجا صغيرا لطائرة ميج ٢١ فوق منضدة صغيرة كتب عليه :

« الى العميد أركان حرب عبد الله القلعاوى »

ان عملية اقتحامكم للسان التمساح ، وتدميركم لمواقع صواريخ الهوك .. لمن العمليات التى سيذكرها التاريخ بالفخر والاعزاز .

مقاتل طيار زميلك

٦٩/٧/١٧

* * *

((يتحدث العقيد صابر .. وهو أحــد من شــهدوا اقتحــام القلعاوى للسان التمساح ومهاجمته قواعد صواريخ الهوك)) .

بدأ القلعاوى مضطربا . وعندما اعلن قراره قلت ان هــذا جنون ، جنون ، وقلت لرئيس عملياتى ..

« ان عودته الى الضفة الشرقية امر فى غاية الخطورة .. »

لكنه كما يقولون ، لايقبل هـذا ابدا ، وشاء حظى ان اشهد احدى هذه اللحظات التى يتحدى فيها القلعاوى الخطر والموت ، لو جرح احد رجاله لابد ان يعود به ، لو استشهد فلابد ان يقاتل حتى يعود بجثمانه ، ربما يفسر هـذا ذلك القتال المر الذى خاضه رجـال المجموعة السابعة جنوب الاسماعيلية ظهر الجمعة ١٩ أكتوبر . اندفع فى اتجـاه القنـاة . رأسـه عار فهو لم يرتد خوذة قط . الاندفاع الانسـانى الأبدى فى اتجاه المصير المحدد . رفعنـا درجة الاستعداد للدرجة القصوى ، وبدت السماء بصفاء يوليو منبعا للهلاك ، اضطرب قارب المطاط قليلا ، جنح الى الشمال امتـارا ، ثم اسـتقام فى اتجاه الضفة الشرقية . وقفزت سمكة ضخمة من الماء مرات . اختفت . كقبضـة صارمة بدت كتلة الدخان الناتجة عن انفجار دانة الهاون ، انبطح مع رجاله الاربعة الذين صحبوه ، قاموا ، تقدموا ، انفجرت دانات اخرى ، تجمد الدخان فى الفراغ . وسمعنا فى الدشم والخنادق والملاجىء صوتا عاليـا نفذ عبر الشظايا ..

ــ يا سعيد .. يا سعيد ..

ينادى رجـاله الجرحى ، كيف يصدر هـذا الصوت المرتفـع القـوى من القلعاوى ، الهـادىء ، المستكين .. الذى لا يتحـدث الا همسا ، اختفى عن ابصارنا ، لم نر مصدر النداء . بدا قادما من الارض والساتر الرملى . من عند خط السماء المطبق على الارض .

***

ما أدلى به أحـد مقـاتلى المجموعة السابعة .. لم نذكـر اسمه لان زمـلاءه وصفوه بانه « مطلوب » أى ان العدو وضع اسمه فى قائمة من يحاول الانتقام منهم ..

انا عملت مع القلعـــاوى . انا أحـد الثلاثة الذين عاد بهم القلعاوى من لسان التمساح . خطوت معه فوق سيناء ، رأيته طيفاً ليليـا ، يخطو بلا حس يسمع ، يصدر اوامره بصمت . يمشى الساعات الطوال فيخجل الواحد منا ان يصرخ بارهاق ، بتعب ، يتحمل .. يتحمل حتى نثبت له أنه جدير بالقتال الى جواره أنا حاربت معه ، هو اختارنى . اختارنا واحدا ، واحدا ، حاربنا معه اسرائيل . بعد فترة معه عرفنـــا عنه كل شيء ، عرفنا أن القلعاوى جـــاء الى الدنيا ليقاتل . لم يتحدث الواحد منا اليه كثيرا ، لكن كل خروج معه يقربنا اليه مسافات ومسافات . انا عبرت معا ستا وثمـــانين مرة ، سلكنا معه الأصعب دائما ، اذا اتجهنا الى هدف معاد فان ثمة ثلاثة أو اربعة طرق تؤدى اليه ، نسلك نحن الطريق التاسع ، قضينا معه الساعات الطوال فوق رمال سيناء لم يتقيد بتوقيتات ، كما يقولون انه يندمج تماما فى القتال ، يصبح ميلاده مع بدء العمليات ، لا مجال معه لاستدعاء التفاصيل ، لرفيق الصـــور ، معه ينتفى الخوف القلق . الم بتفاصيل الأرض التى نمر عليهــا ، أثنـــاء عبورنا الخليج ، ميـاه البحر جزء من سواد الليل ، ينظر الى النجوم ، الى الماء ، يطلب تغيير الاتجاه عدة درجات ، يذهل الدليل بقدرته على اقتفاء الاثر أطلق أسماء معينـــة على مناطق الصحراء المختلفة . توجـد الآن كراســـة فى درج مكتبه ـ (لم يدخله انسان منذ الجمعة ١٩ اكتوبر) حتى تليفونه المباشر لم يستعمله احد ، كثير ما سمعناه يرن ، أحدهم لم يعرف بعد ، فى الأيام الأولى تكرر الرنين مرات ، تمضى الأيام ويقل حتى يصبح نادرا ، لم يرد أحـــد ، حتى هـذا الرنين الذى بدد صمت فجـر الثلاثاء الماضى ، صحبه اصرار ، أيقظ النيـام منا ، لم يرد أحد ، وبدا صـــوته قادما من صمت الليل يذكـــر (بعبد الله القلعاوى) ـ فى هذه الكراسة اسماء وعلامات اطلقهـــا على الصخور والتلال ، اسماء زعماء اقتطع

صورهم من مجلات والصقها فوق ورق أســود مقوى ؛ أحمـد عرابى ، سعد زغلول ، محمد على باشا ، ابراهيم باشـا ، أعرف أنه أطلق أسـماء ولديه وامرأته وشـهداء المجموعة على بعض مناطق سيناء ، لو سألته عن شارع قصر النيل فى وسط المدينة ربمـا أخطـأ الرد ، ربمـا لم يره الا من نافذة سـيارة ، رأيت القلعاوى يطوف بارض الطابور ، كانه يمشى على حافة افريز مبنى ضخم ، يمشى محاذيا حديقة مزدحمة بالاطفال والنساء والرجال والصراع والمرح ، كأنه يلامس أطراف موجـات هدأ صخبها عنـد الشـاطىء . انا رايتـه ينظر الى السماء الليلية عند اطراف معسكرنا بالصحراء الوسطى ، أيستلهم ملامح خطة ؟ أيفكر فى تطوير زناد سلاح بحيث يصبح أسرع بمقدار جزء من الثانية ، أيجهد نفسـه ليفك اسرار وشوشات النجوم ، سمعته يقول ، للنجوم للرمال وشوشة .. اعرف انه نظم شـعرا ، لكننى لم أقرأه ، لو فتحوا ادراج مكتبـه ربما عثروا على بعض قصائده ، أحيانا رأيتـه أكثر مما أرى نفسى ، أحيانا بعدت به المسافات عنى غير اننى منـذ ١٩ أكتوبر يتيم ، أمشى بساق واحدة ، وأحرك ذراعا واحدة ، ربما أستعيد ما فقدته لو طرقت الأرض نفسها ، الدروب التى سلكتهـا معه فوق سيناء أقول .. من هنا مر القلعـاوى غير أننى الآن أطرد الأسى عنى فأقول لكل من القاه ويلقانى .. أنا عملت معه ..

***

ذكر بعض مشاهد متفرقة من حياة القلعاوى .

* مطعم بميدان الحسين ، الموائد مصفوفة فوق الرصيف . تغرق المبانى فى الظلال ، عابرو الميـدان يسرعون ، انها اللحظـات التى تسبق مدفع الافطار ، مائدة حولها سبعة أشخاص يتصدرهم القلعاوى ، ابتسامته هنا راضية ، تعكس راحة وكأن أمرا خطيرا تحقق وكأنه سيقضى عمره مجاورا للحسين ..

* يتأمل زعانف مطاط تستخدم فى الغطس ..

* السبت ٦ اكتوبر ، يدير قرص التليفون .. ماجده .. مبروك .. الحرب قامت ..

* أمام بائع كتب قديمـــة اعتاد فرش بضـاعته على ســور مستشفى الولادة وسـط المدينة فى السماء غمامات بنفسجية ، يقف البائع محييا ، يقول القلعاوى ؟ « أهلا عم كامل .. »

* على باب طـــائرة هيلوكبتر ، تطير على ارتفاع منخفض جدا . تبدو بيوت المدينة ومع ضوء النهار الواهن يلمح القلعاوى ظل الطـــائرة فوق الاسطح والطرقات . عند نقطة معينة فوق المبانى تبدو على شفتيه نفس الابتسامة الموجزة الغامضة والتى قال البعض انها نتيجة تفجر ذكريات معينة ، بينما اكد آخرون انها ثمرة خواطر عابرة ربما تضمنت مرحا . وفى الشهور الاولى من زواجه حارت السيدة ماجـدة فى تفسيرها وسـألته كثيرا عمـا يفـــكر فيه ، عندئذ تختفى تلك الابتسامة الدقيقة الموجزة ، واعتادتها امرأته كأحد ملامحه .

* منتصف ليـــلة الثامن عشر من اكتوبر يقف امام (س) بمركز العمليات .

القلعاوى : هل يمكننى ان اوضح ..

(س) : الموقف كما ارى واضح ..

القلعاوى : لقد قلت ملاحظاتى ، وبرغم هذا سأقوم بها . .

لم يسمع بقية الحوار تماما . كما أن القاتل (د) الذى راى القلعاوى بعد خروجه مباشرة يؤكد أن الشعور الذى خرج به الى تلك العملية مخالف تماما لكافة العمليات التى قادها . قال (د) انه لا يستطيع وصفا لحالته بالضبط . لكنها تستدعى اليه حادثا بعيدا

من طفولته . اذ حدث أن خرجت أسرته للسفر الى بلدتهم وعند القطار راح شقيقه الأصفر محمد يشد ثوب والدته الى الوراء كأنه يود الرجوع الى البيت . بمجرد وصولهم أصيب بمرض لا يدرى (د) حتى الآن طبيعته أو اسمه . ما يذكره أن شيخا اسمه « أبو درية » جاء مرات ليضع على جبهة شقيقه أحجبة مثلثة صغيرة ويقرأ الكثير من التعاويذ . آخر صورة يذكرها لشقيقه رؤيته ملفوفا فى أغطية وثياب تخفى جسده ، لا يبدو الا رأسه وعيناه فيهما استسلام عجيب . سنوات طويلة تلت هذه الزيارة وأمه تقول : شعر محمد بما ينتظره ، عرف أنه لن يعود . لو أننا رجعنا معه لعاش وبلغ الآن كذا من السنين . يثق (د) ان القلعاوى استشرف نتيجة عملية التاسع عشر من أكتوبر .. عندما استدعتهم السيدة « ماجدة » لتعرف من كل مقاتل فى المجموعة السابعة تفاصيل الساعات واللحظات الأخيرة لزوجها ونوعية المشاعر التى ارتسمت على وجهه كاد (د) ان يقول لها ما يثق فيه . ان القلعاوى خرج وهو يعرف بل موقن بما سيحدث أطرق (د) فكر فى صعود القلعاوى تبة الرمل . لو تأخر خطوة واحدة لاخطأته الشظية . لو خطا الى الأمام لما نفذت اليه . لو تبادل مكانه فى المقدمة مع مقاتل آخر . لو تأخر التوقيت دقائق لو اهتزت فوهة المدفع لحظة خروج الدانة . لكن كما قال أحد الرجال ان هذه الشظية انتظرت اللحظة المناسبة بعد أربع وتسعين عملية عبور واستطلاع وقتال ..

* قرب الاسماعيلية . يلمح رجلا عجوزا يسند ذقنه الى عصاه وامرأة شابة وطفلة ولحافا مطبقا وطشتا به موقد غازى . قال عبد المؤمن السائق .. لاجئون من القرى التى احتلها اليهود .. قرض القلعاوى أظافره .

* قبل خروجهم من القاهرة فى نهاية طريق صلاح سالم . فوق مساحة خضراء شبان يرتدون ثيابا كاكية . حولهم حقائب جلدية

بعضها مفتوح ومقعد مما يستخدم فى الجلوس بالشرفات يدقون أوتادا خشبية تمهيدا لشد خيمة لم تفرد بعد . هل رأى بينهم فتاة ترتدى الزى الأصفر ، فكر فى ليلى ، عندما تبلغ الرابعة عشرة .. الخامسة عشرة . سيدعها تسافر بمفردها تكتشف مصر .

* قبل تبة الرمل ، يتقدم المقاتل (ك) يقف بجوار القلعاوى .

— دعنى أتقدم الى أعلى التبة .

يلتفت اليه عارى الرأس لم يرتد خوذته طوال عمره أبدا فى كافة العمليـــات .

— ارجع ..

— سأتقدم أنا .. الموقف غير واضح ..

يقبض القلعاوى ماسورة الرشاش .

— اسمع .. أنا لم أصدر اليك طلبا فى صيغة الأمر أبدا .. الآن أطلب منك أن تلتزم مكانك .. نفذ الأمر ..

على مهل راح يتسلق التبة الرملية تتناثر ذرات رفيعة حول كعبيـــه ..

* * *

ورقة من ملف الخدمة .. تحرر فى ١٩٧٣/٧/٤ البيان التالى بالاصابات الناتجة عن القتال .

آثار طلق نارى بالساق اليمنى . التاريخ ١٩٦٥/١/٥ اليمن
شظايا بالرأس ، التاريخ ١٩٦٧/٦/٧ ، رمانة .
شظايا بالساق التاريخ ١٩٦٩/٤/١٩ ، الطور .

* * *

ذكر السيدة زوجته وبعض أحوالها :

حـــدث فى ليلة الجمعـــة ١٩ أكتوبر أن نزلت السيدة ماجدة الهوارى . عبرت فناء البيت تنظر الى الامام . خطواتها منتظمة ،

وقفت لحظة أمام مدخل البيت ورأت فتاة تحمل سلة يطل منها مقدمة أربعة أرغفة فينو وتمسك علبة زيت خضراء اللون عليها رسم أسد ، ورأت شابا يمسك يد صديقته بقوة ، ومرقت سيارة بداخلها خمسة أشخاص يرتدون ثيابا بلدية . وعلى مهل خطت قطة سوداء فوق جسدها بقعة بيضاء كبيرة . ولاحظت أن عمود النور المواجه للبيت به فتحة قرب قاعدته السفلى تطل منها أسلاك كهربائية عارية .

وفكرت انه من الممكن أن تصعق هذه الأسلاك طفلا أو رجلا أو سيدة عمياء ، وعندما توقف التاكسى فتحت الباب بدون أن تنحنى ولو رآها أحد رجال المجموعة السابعة أو أحد زملاء القلعاوى فى الكلية الحربية . أو الذين عملوا معه فى الصاعقة . أو أحد الذين حاربوا معه فى بور سعيد واليمن وسيناء . لرأى نفس الطريقة التى يقدم بها القلعاوى على ركوب سيارة . نظر السائق فى المرآة المعلقة فوقه.

سأل الى أين ! ! « العباسية » ارتفع صوت المحرك . ولاحظت أضواء الشوارع الخافتة . وفوق الأرصـــفة وخلف النوافذ المغلقة وفى الشرفات المهجورة يطل عبد الله القلعاوى هادئا على وجهه ابتسامته

الآمنة كعطر الورد تصغى الى مذاق حســه الهادىء . « لا تبكى » . حازم . باتر كطلقـــة لا يريدها أن تبكى . وهى لم تبك بل فكرت فى لحظة خروج الألفاظ من شفتيها وهى تنهى الخبر الى والدتها . تسألها عما يجب عمله مع الأولاد . فكرت ، أنهما بدآ يوم أربعاء ، واليوم الجمعة ، البداية لحظة زيارتها لاخته منذ أربعة عشر عاما ، دخوله الهادىء الى شرايينها،هدوء عينيه الذى لم يتغير عند خروجه الى عمليـــة أو عودته من دورية . وعنـــدما قبلهـــا بعد لحظات من انجابها ليلى . الرؤية الأولى حوت كل شىء ، ضمت كل التفاصيل

التى تكشفت واحدة أثر الأخرى على امتـداد أربع عشرة سنة ليلى عمر العلاقة . ليلى الآن صديقتها وسندها وليست ابنتها فقط وهى من ستتطلع الى عينيها اذا ما طرق باب البيت غريب ، وهى من سترى فى وقفتها وقفة عبد الله . تماما كوقوفه فى الشرفة . أو أمام

مدخل البيت ينتظر السـيارة . ستحتضنها تدعوها الى جوارها وتقول لها ، أن أباك سيتأخر ،لو طلبت ليلى وسامح رؤية التليفزيون أو سماع الراديو أو احدى اسطوانات عبد الله فلن تمانع . هكذا يريد . توشك أن تلفظ اسمه الآن ، توشك أن تشم رائحته أثناء عودته طويل اللحية ، يطلب قربة ماء ساخنة . فى بدايات الليل بعد أن يغادرها تصغى الى صوت هيلوكبتر يعبر الليل والصمت والعمر . ترقب طمأنينة سامح وليلى . تخرج الى الشرفة حتى فى أيام الشتاء ونزول المطر . تتدثر بالمعطف . ترقب اكتمال الليل ثم شحوبه وبدايات الفجر . تكاد تتابع العمليـة ، بعد نصف ساعة سيخطو هناك . هذه هى المرة الخمسون . الواحدة والخمسون .

لم يحك لها تفاصيلا . وقع خطواته هناك يتردد عبر ضلوعها الأربعة والعشرين . لا تذكر انه قال لهـا « أحبك » . قبل زواجهما يستمر صمتهما لحظات . فجأة يقبض يدها كأنه جناح طائر غريب . تأمن وتستكين قال ان أيديهما حملت عبء التعبير عن عواطفهما زمنا نظرته اليها حلوة ، هادئة . فياضة لا ترجفها دانات . لا تجرحها شظايا . بعد عودته يتمدد بكامل ثيابه الكاكية . تستعيده من جديد . رجوعه كالولادة يبدو فرحا كالطفل . خلق شيئا جديدا . بعد رجوعه موفقا تدركها نفس هزة البداية قالت له انها خافت الا يستمر الوهج بعد زواجهما . أن يدركهما ملل . ابتسم . لا يعيش الملل والخطر . قال انه أكثر جرأة على مواجهة الخطر بعد حياتهمـا تحت سقف واحد . تلملم أصابعه تستكين يده الليلية الضخمة . مع عودته تعيش سعادة دافقة . كان المفروض أن تحرم منه أن يخرج لا ليعود برجع أو لا يرجع ، السيدة ماجدة الهوارى الآن لا تبكى . تثق أنه يرقبها من مكان خفى ، يراها ، يدرك رجفات قلبها،عليم بما سـيحدث لها غدا . يرى عمرها الآتى ، الآن لن تبكى وسبل الانصال بينهما مقطوعة ، خلال الأيام المقبلة ستعبر هذا الطريق مرات . فى نفس الاتجاه . فى الاتجاه المقابل لن يصحبها . لن تجلس الى جواره بينما

تطل ليلى وسامح من النافذتين الخلفيتين ، ستعبره ليلى يتبمةعندما تصير طالبة . هل ستمر الهيلوكبتر فى نفس الميعاد ؟ لن تنتظر ، تخشى لحظة تستيقظ فيها يملؤها يقين انه يقف فى الصالة . انه أعد الشاى بنفسه . اذ تجلس اليه قد يبدى ملاحظة حول آخر لحظة،حول بعض رجاله . انهم ينتشرون حوله ولكنه فى الظلام يبدو كرقائق المعدن المثبتة الى أجهزة اليكترونية معقدة يتلقى ما يشعرون به أما هو فلا يبوح بآلامه قط . لا يزعج محبيه . عندما أصيب بشظايا فى ساقه قرب مطار الطور ، مشى فوق الصخور ، عبر الخليج ضغط ألمه حتى وصل الى معسكر الاقلاع . لم يقل آهة واحـدة وضع يده بين أسنانه وراح بعضها،يقتل الألم بالألم . أيام خطوبتهما بين الحين والحين يهاجمه صداع غريب تعقبه فترة من الوقت تغيم الرؤية دائما عن عينيه حتى يصل الى لحظة لا يرى ما يحيطه الا بصعوبة عرفت فيما بعد ضرورة اغلاق العينين عندئذ . لكنه ظل مفتوح الحدقتين دائما . ينفى علامات الضيق من ملامحه . يستدير ليتناول قرصا أصفر . سألته ، قال انه صداع لكن اى صداع ؟ تتراجع البيوت بسرعة ، عندما يتأخر أو يقضى ليلته فى المقر تتصل به حوالى الثالثة صباحا . ربما تبادلا كلمة أو كلمتين اما الآن لو أدارت الرقم فى نفس الميعاد الليلى المتأخر ، من يرد . من يجاوبها . من . ؟ ستلتقى بكل من رفاقه تستجوبهم بدقة ، تعيش من خلالهم لحظاته الأخيرة . آهته الأخيرة هل لفظها أم كتمها ؟ عندما تسألها أمها ستقول كما قال عبد المؤمن « مات ميتة نتمناها كلنا ، جاءت الشظية فى موضع القلب تماما » . عندما تستفسر أمها عن الجثمان ستقول « رجالته جابوه » اذا نظرت أمها الى عينيها الجافتين ، الى نظراتها الحادة المستقيمة ستقول ان عبد الله علم كل من يعمل معه أنه لا حدود لقدرة الانسان لما يمكن أن يقدمه ، أن يحتمله . حتى الآلام الوعرة يمكن قهرها . شظايا فى الساق كانت أو فى صميم القلب لهذا لن تبكى قط . لن تدمع أبدا .

هامش اخير :

أجمع عدد كبير من مقاتلى المجموعة على ان القلعاوى كان يخرج فى كل عملية وهو يعلم احتمالات موته . لكنه فى العملية الأخيرة بدا موقنا من النتيجة . من الموت . هكذا تقول كل الدلائل . لهذا تم التوجه بسؤال الى (ك.ى) رئيس العمليات واقرب الخلق اليه مع احترام رغبته فى عدم الادلاء بأية تفاصيل . فقط يجيب بالنفى أو الايجاب « كيف بدا القلعاوى فى تلك اللحظات التى واجه فيهـا (ك.ى) وطلب منه بصيغة الأمر لأول مرة منذ عملا معا أن يلزم مكانه ولكن (ك.ى) عندما وجه اليه السؤال بدا حزينا كأنه تقدم فى السن أعواما عن اللقاء السابق الذى تم معه منذ أسبوعين . لم يتكلم كثيرا. لم يبد ساخطا . لكنه رفض الحديث رفضا باتا . .

١٩٧٤

السبّوبة



حدث ليلة الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ ، ان طارت شظية من دانة هاون ٨١ مللى اسرائيلية الصنع ، حد من اندفاعها فى الفراغ رقبة عويس السويسى فذبحته ، دفن على عجل بمقابر أعدت بسرعة غرب المدينة ، لم توضع فوق قبره لوحة تحمل اسمه ، لم ترص حوله أحجار بشكل منتظم ، لم تغرس عصاة تحمل خوذة . لم يرتد عويس خوذة أبدا اذ أنه لم يجند فى صفوف الجيش ، لم يتسلم اى مهمات بعد انضمامه الى المقاومة أثناء الحصار ، حدث أن أرتدى خوذة مرة واحدة عندما جلس صباح يوم غائم الى جندى صعيدى بمقهى أبى رواش التى تهدم جزء كبير منها ، لم ير الجندى من قبل، فى تلك الأوقات يحدث كثيرا أن يجىء انسان ويجلس بالمقهى . لا يطلب مشروبا ، لا يسأله خليل الجرسون ذلك أن الأقوات عزت جدا ، كوب الشاى نادر لقلة المياه وشدة الحاجة اليها ، رغيف العيش يأكله أكثر من شخص . خمن عويس أن الجندى من الصعيد ، يتحدث دائما الى من يلفت نظره ، الى من يجاوره فوق الرصيف ، أو فى رقدة أمام مسجد أو فناء بيت قديم ، يبدأ بسؤال لا يتغير ، من أى بلدة أنت ؟

حول عينى الجندى ما يشبه رذاذ جير مطفأ ، قال انه من البدارى بدا غير راغب فى الكلام اذ انه عاد الى اطراقته وكأن حوارا لم يتم ، أبدى عويس حماسا وكأنه عاش عمره ينتظر اى قادم من البدارى .

« البدارى ؟ أجدع ناس » : أحنى الجندى رأسه شاكرا ، وجه نظراته الى بيت قديم متهدم على الناحية الأخرى من الطريق . رصد عويس نظراته ، صاح موضحا أن هذا البيت دمر أثناء حرب الاستنزاف فى غارة طيران ، عام ١٩٧٠ ، استشهد فيه موظف بهيئة قناة السويس اسمه رشاد أفندى ، لا يدرى متى أحيل الى المعاش فمنذ أن وعى وهو يرى رشاد أفندى محالا الى المعاش ، يجيىء يوميا الى المقهى ، يجلس فوق الكرسى الذى يستريح عليه الجندى ، يشرب ثلاثة فناجين قهوة ، يسأل عم خليل ، هل وصلت رسائل ؟ ، حوالى الثانية عشرة يقوم متمهلا ، لا يخرج من بيته الا صباح اليوم التالى ، كل يوم أربعاء يطلى زجاج نوافذه باللون الأزرق ، مهما اشتد القصف لا ينزل ، لا يغادر بيته ألا فى ميعاده اليومى الى المقهى ، آخر يوم جاء فيه اقترب منه عويس طارقا صندوق ، زجاجات الأصباغ وعلب الورنيش بالفرشاة ، هز رأسه نفيا ، قام ، تابعه عويس ، بعد دخوله البيت بدقائق جاء الطيران ، وكأن الطيار اسقط قنبلة بحبل، أصابت البيت تماما ، لو مسح الحذاء ، لو تمهل فى شرب القهوة ، لكنها الأعمار ، لكم بدا خلال حياته مستعصيا على الحديث ، حتى فى لحظات قصف الطيران ، تتطاير شظايا أصــوات قذائف المدفعية المضادة ، لم يتحرك ، قيل فى السويس انه عند حدوث قصف يمكن مشاهدة سويسيين لا يفارقان مكانهما أبدا ، لا ينزلان الى خندق ، لا يحتميان وراء ساتر ، انهما رشاد أفندى وعويس ، عويس يرى فى الشوارع طوال الليل والنهار ، لا يدرى أحد ، هل معه بطاقة تهجير أم لا ؟ هل لديه بطاقة شخصية ؟ هل لديه شهادة ميلاد ؟ هل تلقى تعليما ؟ من سمح له بالبقاء بعد تهجير الأهالى ، يقول عويس انه عند تصنيف الأهالى تمهيدا لترحيلهم لم يمتلك أى مستند يتقدم به ، لم يذكر محافظة يرغب الذهاب اليها ، أو وظيفة ينقل اليها ، أو مهنة ليعان على الاستمرار بها ، يضحك عويس ، لو أصروا على ترحيله لوجد ألف وسيلة يعود بها الى السويس ، يقول انه سعى

كثيرا للالتحاق بعدد من الوظائف . قدم الكثير من الخدمات لموظف منقول الى السويس على أمل الحاقه فراشا بمديرية الصحة ، مسح حذاء الموظف مجانا . عندما باع الليمون اختار أكثر الثمر طراوة وامتلاء بالعصير ، نظف شقة الموظف يوميا ، غسل غياراته الداخلية. رتب حقائبه عند السفر ، فجأة ابتعد تماما عن الأفندى ، صار يراه ماشيا على الرصيف فيعبر الى الرصيف المقابل ، لم يعرف انسان سر هذه الجفوة لم يهتم أحد بمناقشة الأمر لأن علاقات عويس وتصرفاته وكافة ما يقوم به لا يهم أحد ، انه يظهر فجأة فى ليالى السهر ، يصفق ، يرقص ، يرفع الكرسى بأسنانه ، يقلد النشال والمقعد وضابط الأمن والكمسارى والقبطان ، آخر السهر لا يسأله أحد ، كيف سيمضى والى أين سيذهب ؟ لم يصحب انسانا الى بيت ، لم يمتلك مفتاحا أبدا ، لم يحمل عنوانا ، كثيرا ما رقص وأدهش ، ويحدث أن يقوم الحاضرون لتناول عشائهم ولا يدعونه فيبقى مكانه لا يطلب ولا يسأل مع أن الجوع يقلق نومه المنتظر ، لم يشك الموظف الشاب لأى انسان ، لكنه شكا الى هذا الجندى من أولاد الحرام الذين لا يعرفون مقادير الناس ، قال ان الموظف عرض عليه الذهاب ليعمل خادما باحدى الشقق بالقاهرة ، وعندما قال انه لا يستطيع مفارقة السويس ، سخر منه وقال ، من يسمعك يظنك تمتلك العمارات والدكاكين . قال ان لسانه لم يخاطب لسان الموظف بعد أن طلب منه البحث عن . . عن امرأة يقضى معها وقتا ، أكد عويس انه لم يبح لانسان بحقيقة ما جرى ، تحدث الجندى عن البدارى ، أبدى عويس تجاوبا ، كأنه قضى عمره فى تلك البلدة البعيدة شرق النيل ، عدل الجندى وضع بندقيته سريعة الطلقات ، قال انه لا يخشى على أمه من الظروف ، انها قادرة على مجادلة الرجال والخروج الى السوق لتبيع المتس القديم الذى تتقن عمله ، كما أنه رفع المبلغ الذى تدخره الى تسعة عشر جنيها خلال الأجازة الأخيرة

قبل الحرب ، يخاف عليها من القلق ، لم تصلها أى معلومات منه ، لم يصلها انسان من طرفه ، يعرف حرقة الانتظـار ، لا يدرى متى سينتهى الحصار ، تحدث عن نشاط أمه عند عودته ، حركتها من الفرن الى الكانون ، جلسة أول الليل تحت سقف السماء التى تبدو من رحبة البيت ، قبل نومه تسأله ، هل يعوز حاجة ؟ قال عويس للجندى فى ذلك اليوم انه لا يطيق النوم تحت سقف بيت اعتاد النوم والنجوم فى عينيه ، لم يخرج من السويس أبدا ، لم ير مدنا غيرها، بالتأكيد ولد فيها ، أين بالضبط ؟ لا يدرى ، رحلت عينا عويس الى بعيد ، فجأة ضحك ، طلب من الجندى أن يعطيه الخوذة ليرتديها، أحكم الحزام الجلدى حول ذقنـه ، قال انهـا ثقيلة ، تسـاءل : هل تحمى من الشظايا ؟ قال الجندى ، لا شىء يحمى الانسان اذا حان أجله . بعد لحظات قام الجندى ، افترقا على غير ميعاد ، عويس تحدث الى الحمالين فى القطارات ، الى العاملين على عربات النقل ، الى أقارب الصعايدة المقيمين بالجناين ، جنود المطافىء المنقولين الى المدينـة ، بعد الحرب كثيرا ما اصغى الى هؤلاء الجنود الذين رأوا السويس لأول مرة ، بعد لقائه بالجندى صاحب الخوذة ، حاول تتبع ملامحه فى المدينة المحـاصرة ، لكن الوجوه اختلطت عليـه ، يضيق عويس بالحصـار ، الطـرق على امتـدادها مغلقـة ، العربات داخل المدينة مهما اسرعت تبدو وكأنهـا تمضى فى حركة دائرية ، لأول مرة يأكل مع أشخاص بعينهم . أحمد الموظف بشركة البترول ، كفتة البمبوطى ، قناوى المصور ، الملازم الاسـكندرانى قائد المجموعة ، لم يحدث فى حياة عويس أن أكل فى طبق معين ، لم يجلس الى مائدة أو طبلية بعينها . اكل فوق الأرصفة المواجهة لمحطة اوتوبيس الأربعين ، المقاهى الصغيرة ، كورنيش المدينة ، على شاطىء بور توفيق عندما سمح له قبل الحرب ببيع البيبسى كولا للمصيفين اكل ثمرات الطماطم وقطع الجبن على منـديل قديم بنى اللون طرز عليه حرف انجليزى تهرأت بعض الخيوط التى نسجته ، أعطاه له

أحد قباطنة مراكب الصيد ، ذاق الفطائر عند ذهابه الى المقابر أيام الأعياد ، لا أقارب له مدفونين هناك ، عادة يملأ منديله بكعكات وشطائر ثم يقرأ الفاتحة على أرواح بعض الراحلين ممن عرفهم بالمدينة ، بعضهم لم يبادله كلمة واحدة طيلة حياته كتوفيق بك الذى عمل مأمورا للسويس سنين طويلة وعرف عنه الطيبة وعدم الرغبه فى ايذاء ضعفاء الناس ، يزور أكثر من جلس البهم وهو الشيخ المرزوقى ، عاش ومأواه أضرحة الأولياء والمساجد وقضى خلوة طويلة باحدى مغارات جبل عتاقة ، آمن عويس بأنه طواف يذكر اسم الله فى البلاد ، قدم له خدماته حتى مات فى المدينة بعد مرض قصير رفض خلاله الذهاب الى أى مستشفى والاستعانة بأى طبيب بعد الحصار وانضمام عويس الى المقاومة لحظ اللازم اختفاءه أثناء مواعيد الوجبات ، قال قناوى المصور أن عويس يأكل فى أى مكان ، أبدى اللازم اعتراضا ، ان الطعام فى المدينة قليل ، وربما يخجل عويس من الجلوس معهم ويلقى صعوبة فى الحصول على قوته ، فى البداية ضاق عويس بجلوسه معهم ، خيل له أنهم ينظرون اليه خلسة ، انه يرتكب أخطاء لا تليق أو يأخذ أكثر من نصيبه ، فى ثالث أيام تناوله الغذاء معهم نزل الى صمت المدينة حيث أعياه الحصار وصدأ الخريف والنواصى التى لا ينتظر ظهور أطفال يلعبون عندها أو نساء يختلن فى زينتهن ، توقف ، صاح بصوت عال ، « هذه الطريقة لن تنفع » ، انه يمضى الى نوبات حراسته بانتظام ، لم يخلف تدريبا واحدا ، يسهر معهم الليالى التى يجب أن ينامها ، يصغى الى أصوات الليل ، الى طلقات الرصاص الغامضة ، يتأمل انصهار السواد لثوان بتأثير الفليرز ، يتابع القطط المارقة ، مرنة ، تذوب فى السواد والخطر ، يحاول تفسير الأصوات الغامضة ، لكن أن يتناول الغذاء معهم فهذا يضايقه ، فى المساء قبل ذهابه الى وابور المياه سأله اللازم ، لماذا لا ينام مع الجماعة ؟ صمت ، لم يفكر أبدا فى النوم معهم ، قال حزينا انه ينام فى أى مكان بالسويس ، قال

اللازم هذا خطر ، ثم يجب النوم فى مكان معروف ، ربما احتاجـوا اليه ، ربما انهار فوقه أى بيت يأوى اليه عندئذ يتلاشى أثره ويضيع رجاه عويس أن ينام كيفما شاء ، المدينة كلها معروفة له كراحة يده بدا مستعدا للتنـــازل عن أى طلب آخر عدا ما يتعلق بنومه ، قال لقناوى ان ظهره لو تمدد فى مكان واحد ليلتين متعاقبتين ينتابه أرق ويكبسه ضيق ، أرصفة المدينة أكلت من جسمه حتتـا ، فى أعنف الاشتباكات شوهد متمددا فوق الأرصفة التى تقسم الطرقات وأمام أبواب العمارات ، حدث صيف عام ١٩٧٠ أن سقطت دانة على بعد أمتار منه ، بترت شظاياها شرفة بيت استظل بمدخـله قال خليل الجرسون أن عويس محجب ، حدث أن آوى الى شقة فى بيت يطل على الخليج ، نام بمفـــرده فى البيت كله ، جاء صاروخ كبير يمشى متمهلا فى الهواء كالأوتوبيس ، نفذ من سطح البيت ومن الطـــابق الثالث ، والثانى ، ثم استقر فى صـــالة الدور الأول سليما ومازال متمددا فى نفس مكانه كرجل ميت ، لم ينفجر ، ولم يتهدم البيت ، لكثرة ما رأوه نائما فى الطرقات لا يحذره أحـــد اذا عوت صفارات الانذار ، ربما لعدم اهتمام انسان به ، اذا احتاجه أحد وسأل عنه . يقولون من الصعب العثور عليـــه ، لا مكان له ، ولا أقارب يمكن سؤالهم عنه ، لكن لا تمضى ثوان ويظهر ، يرى قادما من منحنى ، أو خارجا من بيت مهجور متهدم ، يظهر متثائبـا ، يهرش ظهره ، أو يضحك ، كأنه يستجيب مقدما لأى مداعبة ، لم ير عويس يمشى متمهلا ، ممسكا ذراع امرأة ، لم يلمح مؤتنسا بأنثى ، لم ترو عنـه مغامرات ، كثيرا ما جلس بعد قيامـــه بعمل ما ، يطلق تنهيـدة ثم ضحكة ، ربما عقد ذراعيه واطرق برأســه ، قال بعض العابثين انه عاشق لامرأة فلاحة كالقمر من الجناين ، فى كل مرة يصيح فيهم ، « اسكتوا » لم يهرول مبتعدا ، فى ليلة ضيقوا عليـه حتى أمسـكه البعض محاولا تجريده من ثيـــابه . اختفى أياما لا يعرف عددها ،

غيابه لا يلفت النظر ، ذات صباح ظهر أمام مقهى أبى رواش ، بدا مجهدا ، شفتاه مقددتان ، زرقاوتان ، سأل عم خليل . .

« أمسح لك المقهى وآخذ قرشا » ؟

الشتاء مضاعف فى المدينة المهجورة ، البلاط يفح رطوبة تكاد ترى فى الفراغ ، انحنى ممسكا الخيشة ، أغرق الماء البارد قدميه المتشققتين كشبكة من حفر ، عمل عويس فى أشغال عديدة ، غسل الصحون فى مطاعم السويس الفقيرة ، عمل حمالا لأجولة الفول ، صناديق السمك ، هرس الطعمية ، عمل فى رصف الطريق الممتد حتى قرى الجناين لمدة أربعة أيام آخرها رفض المقاول أن يعطيه أجرا ، لم يكافه أحد بالعمل ، ولم يدرج اسمه فى الكشوف . لم يناقش ، جاء فى نفس اليوم الى صاحب طلمبة بنزين يدوية :

« هل أدير لك الطلمبة اليوم مقابل رغيف وباذنجان مقلى » ؟ ؟

لا يدرى أحد أين يضع صندوق مسح الأحذية ، يظهر ممسكا به أحيانا ، يمسح لزبون أو اثنين ، يختفى ليظهر ممسكا حزم فجل وجرجير ، أو قفص طماطم ، بعد احكام الحصار وانقطاع شرايين الطرق وارتداد اليهود عن السويس بدا هائجا ، يمشى مهددا الفراغ يعلن لكل من يقابله انه سينفذ بطريقة ما من هذا الحصار . دخل أحد المخابىء القريبة من مبنى المحافظة ، صاح فى المتواجدين داخله ، هل يصدق أحدكم أن السويس محاصرة ؟ قال له الحاج حسن السودانى موزع الصحف ، لماذا تبدو هائجا وانت لم تخرج من السويس أبدا ولن تغادرها ، تعال وتطوع فى المقاومة ، رأيتك تنقل صناديق الذخيرة عندما هاجموا البلد ، لا تنقصك الشجاعة ، تعال بدلا من طوافك كالنحلة ، بقت شفتاه مفتوحتان لحظات ، تذكر يوم أن حمل صناديق لم يتخيل طوال عمره أنه سيحمل مثلها لثقلها ، أثناء جريه تحت مبنى المستشفى أطلت بعض الممرضات ، زعقن ، قال عم خليل لعويس انهن يستنجدن به مع أن عددا كبيرا من

الأهالى والجنود راح يعــدو فى اتجاهات متفرقة ، أسرع الخطى مرددا ، « لن يصلوا ابدا اليهن » ، انتظم عويس فى احدى مجموعات المقاومة ، فوجئوا به يجيد اطلاق النار ، فك البندقية نصف الآلية أمامهم ، نظف الكلاشنكوف ، فكه وقام بتركيبه من جديد ، قال انه اتقن هذا من صداقته لعديد من الجنــود ، أبدى صبرا وجلدا ، فى الليالى الباردة يقف مرتديا الأفرول الصيفى الذى ظهــر به منذ انضمامه الى المقاومه ، اعتاد الناس رؤيتــه فى ملابس الآخرين ، جاكت كاروه ، صديرى بلدى ، قميص أفرنجى ، فى شــتاء أحد السنين ظهر بمعطف ثقيل طويل ، وقيل انه عند نومه لا يلف جسمه به ، انما يطبقه ويضعه تحت رأسه ، لم يترد عند قيامه بأى مهمة ، عندما كلف باستطلاع موقع قريب للعدو قرب الهاويس ، خاض فى الطين عاريا ، قضى الليلة فى المجرى الضحل ، عاد يروى ما رآى ، ما سمع ، والملازم يدون ، يكتب ، فى هذا اليوم ســأله الملازم عن عمره قال عويس أنه لا يدرى ، تطلع الى وجه الملازم ابن العشرينات ، بعد لحظــة قال حضرتك من أى بلد ؟ ، فى تلك اللحظــة مر قناوى المصور ، رآهما يجلسان أمام المقر ، الملازم يتحدث وعويس يصغى ، لم يعرف ما يدور بينهما ، حدث فى اليوم التــالى الموافق الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ أن طلب الملازم استدعاء عويس فورا لدفعه ناحيــة مبانى شركة شل ، حارأفراد المجموعة ، أبدى الملازم ضيقا ، ألم يطلب منه البقاء معهم فتوسطوا له حتى يدعه على راحته خرج قناوى متضايقا بعد أن وعد بالبحث عنه ، عند الناصية رآه قادما ، لا يتحرك فى فراغ الطريق غيره ، نفس الانحناءة التى توحى لمن يراه وكأنه على وشك الجرى .

« عويس » .

دهشة وجهه تمنحه براءة طفل ممزوجة بتعب .

« الملازم يطلبك فورا .. » .

« الآن ؟ » .

« نعم .. » .

« لكننى ذاهب الى الجناين .. » .

هنا علا صوت الملازم الذى لحق بقناوى بعد خروجه ..

« هل جننت .. الجناين فيها عدو .. » .

ردد النظر حائرا بين قناوى والملازم ، فى تلك اللحظة برق شىء ما فى ذهن الملازم ، أدرك ما جعله يتحدث الى عويس طويلا ليلة أمس عن اخوته ، وأبيه . وأمه ، والبيت ، وسريره الذى لا يمس طالما بعد عن البيت ، وخروجه المسائى أيام الاجازة يجلس مع بعض أصحابه فى مواجهة البحر صيفا أو شتاء ، حدثه عن أصحابه ، وأوشك أن يحدثه عن حبيبته وعما يتبادلانه من أشواق فى حدائق المنتزه ، فى تلك اللحظة رأى فيه أكثر الناس الذين قابلهم قدرة على الاصغاء ، وبعث الأمان ، وأحاسيس أخرى لم يدرك طبيعتها بالضبط ، لمح أيضا آثار العمر فى الضوء الغروبى الشاحب والصمت المخيم كأنه التمهيد لضجيج آت لن ينته ، تساءل ..

« ما الحكاية ؟ » .

قال عويس ان سبوبة لن تعوض فى الطريق ، سيأتيه أحد الفلاحين بقفص طماطم وربطة فجل ، سيعطى المجموعة جزءا ويبيع ما يتبقى ، قال انها سبوبة لن تتاح لأحد ، والخضار قليل جدا .

أرجأ الملازم عدة أسئلة حول كيفية ذهابه ، كيف سيلتقى بهذا الفلاح ؟ كيف تم اتصالهما ؟ يبدو عويس سهلا ، بسيطا ، قادرا على اجتياز أصعب الأمور ، نظر الى وقفته ، الى انضغاطة كتفيه ، بهما هدة عمر بأكمله وتعب ، الى رقة جلد الوجه المتعرض دائما لتقلب الهواء وتمدد الفراغ وانكماشه ، الى تجعيدات حول العينين ، لسبب ما تذكر والده العجوز لحظة عودته من المدرسة ، يبدو أمر

ما يجعل عويس قريبا غير ذلك الشـعور المصاحب لسلوك الأهالى خلال الحصار والذى جعلهم يتقاربون أكثر ، ينام الأصـدقاء فى أى بيت مفتوح ربما لا يعرفون صاحبه .

« نحن نحتاج اليك يا عويس . . » .

« لكن السبوبة يا حضرة الملازم . . » .

« اختر اذن بين السبوبة . . أو الوطن . . » .

تصطدم قطعة معدنية غير مرئية بحاجز ما ، ينـادى شخص فى مكان بعيد ، كالدوامة فى الأعماق أحدث الصمت صدى فى الفراغ ، يغرق الظل مداخل البيوت المحيطـة ، النوافذ الخشبية المتربة ، لحظة من النهار الراحل تبعث صورا وروائح وأصواتا بعيـدة نأت طويلا عن الذاكرة ، ينقل قناوى ثقل جسمه من ساق الى أخرى ، يرفع عويس وجهه ، انه عجوز ، يهـز رأسـه هزتين موجزتين ، سريعتين ، صامتتين . .

« طيب يا سعادة الملازم . . اخترت الوطن . . » .

أول مارس ١٩٧٦

مجهود حربي



عرف اهالى حى الأربعين وحى زرب ، خضر ابو عطية بائعا للشــاى ، يقف أمــام النصـــبة الخشبية أو يتحرك بين الدكاكين والورش حاملا صينية كبيرة عليها الاكواب والفناجين ، بدأ عمله ومعه براد شـــاى ازرق وموقد ماركة بريموس ، ودستة اكواب زجاجية ، بعد زواجـــه من الست شمعة تمكن بمساعدة بعض الصالحين ، منهم الشيخ زكريا تاجر الخيش القـــديم الذى عطف على خضر لوجـــه الله اذ لم ينقطع عن رؤيتـــه فجر كل يوم فى مسجد سيدى الغريب ايام الشتاء وايام الصيف ، عندما اتم بكر الابن الوحيـــد لخضر الرابعة اتم سعدون النجار عمل نصبة من الخشب ، مستطيلة ، الجزء الأسفل منها بضلفتين ، يضع داخله الشاى والسكر والاصناف الاخرى التى بدأ فى اعدادها ، الكاكاو، القرفة ، أما الجزء الأعلى فمبطن بالصفيح والقصـــدير الذى يبعـــد لهب الموقـــد عن الجسم الخشبى ، يتسع لثلاثة مواقد ، اثنان من الحجم الكبير والثالث صـــغير يعمل بالكحول لاعــــداد فناجين القهوة ، أعلى امتدت ثلاثة رفوف ، اثنـــان عليهما أكواب زجاجيـــة مضلعة الحواف ، والثالث عليـــه فناجين قهوة ، اشـــتهر شاى عم خضر فى حى الاربعين ، حرص على تنـــاوله اصحاب الدكاكين

الصغيرة ، مطاعم الفول والطعمية والسمك المشوى ، ثم وقع حدث هام عندما قرر الحاج الدمياطى صاحب وكالة حبال السفن شرب الشاى من خضر ، بدلا من مقهى القابوطى ، قيل فى سبب ذلك أنه عندما شرب كوب الشاى صباح ذلك اليوم وجده مغليا ، عندئذ اقترح عليه وكيل اعماله تجربة شاى خضر الطازج دائما ، الخالى من التفل ، ابدى الحاج دهشة لوجود مثل ذلك الاخلاص فى هذا الزمن الردىء الذى لا يعرف الانسان كيف يشرب كوبا من الشاى فيه ، أدى هذا الى تحول جميع العاملين بالورشة عن مقهى القابوطى ، القى هذا عبئا على خضر ، الوكالة تستوعب شاى مقهى بأكمله حاول القابوطى مضايقة خضر ، لكن بعض الأهالى واجهه بحزم ، قالوا له ان الأرزاق من عند الله ، اشترى خضر اكوابا جديدة ، كما اتقن تحويجة بن افضى اليه بسرها رجل مغربى عابر وتقضى باضافة حبهان وقرنفل وجوزة الطيب بمقادير معينة مما حبب هواة القهوة كثيرا ، ازدادت ساعات عمله من السادسة صباحا حتى الحادية عشرة مساء ، كما اتفق مع عبده النجار على صناعة دكة خشبية تتسع لجلوس خمسة أشخاص ، حتى يستقبل زبائنه من سائقى عربات النقل ، والتاكسيات ، والعابرين ، يشربون الشاى الذى عرف به وتفوح منه رائحة ذرات نعناع جاف أخضر ينثره بمهارة فوق الشاى ، عندما اتم ابنه بكر السادسة نصحه بعض الجيران بتدريبه على العمل معه ، يساعده ، يوصل له الطلبات ، لكنه ذهب به الى مدرسة الاربعين الابتدائية ، تقدم بطلبين ، الأول يرجو فيه الحاق ابنه بالمرحلة الابتدائية لبلوغه السن القانونية ، والثانى كتبه بعد نصيحة من باشكاتب المدرسة ابراهيم افندى ، ويطلب فيه اعفاء ابنه من رسوم القيد وقدرها جنيها ونصف جنيه ، أرفق شهادة تثبت عوزه ، ورجا الباشكاتب الا يشعر بكر بأى علاقة تشير الى تقديمه تلك الشهادة ، استجاب الرجل الطيب ، ونادى

اسم بكر بصوت عال من كشف الطلبة الذين سددوا المصاريف أيقن خضر أن كل ما يجيئه من رزق نصيب ولده ، مكافأة له على حسن نيته وصبره على تعليم بكر ، خاصة ان دعواته اثمرت ، لم يعرف عن بكر هواياته للعب الكرة ، أو ركوب الدراجات ، أو الذهاب الى السينما ، كتب اسمه فى لوحة الشرف مرات ، رضى عنه المدرسون ، اهداه الناظر قلما ومسطرة ، فى الليل يسهر امام الطبلية منحنيا ، لا ينام الا بعد الحاح أمه حتى يقوم مستريحا من النوم ، وعندما أنهى بكر دراسته الاعدادية حوالى عام ١٩٥٩ ، تمكن خضر من دفع جنيه واربعين قرشا الى ابى غزالة الكهربائى مقابل مد سلك الى داخل الغرفة يضىء مصباحا يذاكر عليه بكر بدلا من لمبة الغاز ، استوثق خضر ان التيار الكهربائى غير مسروق من أحد ، أو من أسلاك الحكومة ، كما اتخذ اجراء آخر لتوفير ظروف أفضل لبكر منها نومه الى جوار امرأته فوق الأرض ، ونوم بكر فوق السرير ، حاول أيضا تجنيب ولده ما تصور انه حرج ، لم يتردد كثيرا على المدرسة ، حتى لا يتضايق بكر يوما اذا ما تشاجر مع زملائه وقالوا له .. يا ابن القهوجى .. مع ان كلمة قهوجى تطلق عليه تجاوزا لعدم عمله بمقهى ، كما تخلى منذ سنوات عن حلمه بامتلاك مقهى لارتفاع التكاليف .

حقائق لم يعرفها اقرب الناس

اثقل خضر هم دائم . هو توفير مصروف البيت ، أشد ما كرهه مد اليد الى الغير ، لكن الرعب يتملكه اذ يتصور عودة بكر الى البيت بدون ان يجد باذنجانا مقليا او طبقا من الفول او بيضا ، تعامل خضر مع ثلاثة اشخاص ، السنى الخباز ، واباظة العجمى ، وعبد الهادى البقال ، كثيرا ما توقف ليتأمل المارة ، اعتاد معارفه صمته فلم يخمن احد ما يداريه ، ينقبض قلبه اذ يرى البعض يحملون خضارا ولحما ، اذ تتجمع القروش فى يده يطلب

من بناويطى الحلاق الانتباه الى النصبة ، يهدىء نار المواقد ، يمسك طرف جلبابه ، يسرع الى البيت ، حدث ان عرضت امرأته الاستدانة من الست عطيات لكنه ابى ، ربما تشاجرت فى اى لحظة عندئذ تعايرها بصوت عال ، بماذا سيشعر بكر ، حرص ايضا الا يلجأ الى اللحم الحى ، ويشمل السكر والشاى او المبالغ المخصصة لشرائهما .

من الحقائق المجهولة ان « خضر » لجأ يوما الى الشيخ زكريا طلب اعارته جلبابا صوفيا ليوم واحد ، دعته المدرسة لحضور مجلس الآباء ، لم يفكر أبدا فى دعوة كهذه ، لا يمتلك جلبابا يصلح ، ذهابه الى المدرسة اقتصر على دفعه المصاريف ، يخشى او أعطاها لبكر أن يخطفها أحد الأشرار ، لم يلتق الا بعلى أفندى سكرتير المدرسة الذى يجيىء بعد الظهر ، يجلسان فوق الدكة ، يقدم اليه الشاى مجانا ، يتبادلان الاخبار ، يتحدثان عن تعديلات تنوى مصلحة التنظيم اجراءها . عن اعادة رصف الطريق المؤدية الى الميناء ، هل سيتم ذلك قبل موسم الحج القادم ؟ يتحدثان عن الأجانب الكثيرين المقيمين بفندق بلير ، لم يعرف بكر بأمر هذه الزيارات ، أصغى الشيخ زكريا ، قال ان لديه جلبابا لم يرتده الا مرة واحدة ، مد يده الى صديريته أخرج محفظته الجلدية المرصعة بفصوص الألومنيوم ، مد الى خضر جنيهين ، انه يعلم ما ستنتهى اليه هذه الاجتماعات ، سيطلبون منه تبرعا للمدرسة ، قال انه سيسترد كل ما قدمه بعد أن يعمل بكر ، فكر خضر أن يميل ليقبل يد الرجل .

ان معظم الثياب التى ارتداها خضر تلقاها كهبات ، فى بيته الآن مقطف كبير يمتلىء بقمصان قديمة ، بنطلونات ، جلابيب ، كما يوجد ربطة ثياب عسكرية مربوطة بحزام جلدى عريض (قايش) . تخص جنديا نوبيا اسمه مرجان ، طلب منه أن يحفظها عنده يوم ١٩

فبراير ١٩٧٠ . خرج الى سيناء فى دورية ولم يرجع . اعتبر مفقودا حتى الآن .

أن حقائق عديدة بقيت مجهولة ، معظم مشاويره قطعها مشيا حتى يوفر ثمن التذكرة ، لم يمارس الجنس حتى الزواج ولا بعد رحيل امرأته الأبدى ، لم يتطلع الى امرأة أخرى ، جاع يوما قبل زواجه وأثناء صعوده سقالات البناء المنصوبة حول عمارة جديدة حاملا صينية الشاى ، أوشك على السقوط لولا أنهم لحقوه ، أنواع الطعام التى أكلها لم تتعد أصنافا محدودة ، الفول ، الطعمية ، العدس ، الباذنجان المقلى والفلفل الرومى ، عندما يفرق نصيب امرأته وابنه من اللحم يأخذ لنفسه أقل القطع حجما ، السمينة أو ذات العرق المستعصية على المضغ ، لم يدفع قرشين ثمنا لزجاجة مياه غازية ، أحيانا ترى خلف أذنه سيجارة لكنه لم يدفع ثمن واحدة أبدا ، فى أحد الأيام البعيدة أعطاه مقاول صعيدى علبة كاملة ماركة « هوليود » . لم يفك غلافها السيلوفان ، انما باعها الى عبد الهادى البقال بأقل من ثمنها الحقيقى بثلاثة قروش .

التهجير :

عندما طلب من خضر أن يملأ استمارات التهجير ، قال للموظف المختص انه لم يعد له بلدة يمكنه اللجوء اليها ، انه يعيش بمفرده فى غرفة واحدة ، لا يضر انسانا ، لا يخاف عليه أحد . بل يخدم الجنود الذين ينتقلون من موقع الى آخر عبر المدينة ، يجدون عنده كوبا من الشاى الساخن ، لو نزل الجندى ولم يجد من يقدم اليه كوب شاى سيغتم ويحزن لمنظر البيوت المهجورة والمقاهى المغلقة ، قال ان النصبة لا تحتل حيزا وطوال عمره لم يحرر له محضر شغل الطريق العام أو التسبب فى زحام ، هذا قبل اضطراب الأحوال ، عندما كانت السويس تشغى بالخلق ، لم يقل خضر الموظف أن ابنه طبيب بالقاهرة ، ويمكن أن يساعده فى الحصول على تصريح ، لم يقل انه

خصص ثلاثين كوبا من الشاى يقدمهــا الى الجنود ، لا يتقــاضى ثمنها ، داعبه الجيران الباقون وُطلقوا عليهــا ، « مجهود حربى » ، فابتسم قائلا : « ما أنا حياتى كلها مجهود حربى » ، جنود عديدون يفاجأون برفضه تقاضى مليما واحدا ، اعتــاد جلوسهم حوله ، فى البداية لم يبادلهم أحاديثا طويلة كعادته ، انما يخدمهم بنشــاط عجيب ، يقدم اليهم الصينية بيديه المهتزتين ، اذ يلحظ بعضهم ذلك يقومون ، يتناولون الأكواب قبل وصــوله اليهم ، يبتسم اذ يصغى الى مداعباتهم الشابة ، فى ذلك اليوم تحدث الى بعضهم ، قال انهم يريدون تهجيره ،بعد هذا العمر كله ، أن يفارق سيدى الغريب . قال أحد الجنود انهم سيفتقدون شايه الطيب ، نظر اليه معاتبا ، كيف يفكر هــذا الصعيدى الجدع فى مفارقتــه للسويس ؟ لا يستطيع تخيل نفسه مستيقظــا فى مكان آخر ، لا يرى النصبة كل صباح ، يفرغ قوالب السكر وأكياس الشاى فى الأوانى ، صحيح ان أحبابا كثيرين هجروا ، فى لحظة خيل اليه أن مقصــا هائلا يقطع حيــاة السويس جزءا ، جزءا ، ويرميهــا الى المجهول . أحباب آخـرون رحلوا أثناء القصف ، رحم الله الشيخ زكريا الذى ذبح بشظية بعــد حريق الزيتية بيومين ، بدات لحظات صمته تطول ، صحيح انه لم يتحدث كثيرا أثناء عمله ، لكن وجودهم لم يفــارقه ، فى الدكاكين ، الوكالات ، الورش ، وقت العصارى وجلوس الزبائن فوق الدكة ، وجردل المياه الذى يرشه بحذر وبطء حول النصبة ، حركة الشارع ان معظم الدكاكين والوكالات مغلقة الآن ، أبواب المنــازل مربوطة بسلاسل حديدية غليظــة ، مع مضى الأيام اعتــاد رواده الجدد بارهاقهم البادى،وأحاديثهم المرتفعة،وجلستهم المميزة اذ يطرقون، يسندون ذقونهم الى راحات أياديهم ، يسرحون فى الفراغ ، بنادقهم ورشاشاتهم بين سيقانهم كأطفال صغار ، أعمارهم المتقاربة تزيد عن عمر بكر عاما أو تنقص عامين ، اذا رأى أحدهم قادما يقوم نشيطا ، يولى وجهه ناحية النصــبة ، يدفع كباس الموقد ، يكشف غطاء

البراد الأزرق ، يغسل الأكواب مع أنه سبق أن غسلها أكثر من مرة يتبادلون أحاديثهم الخاصة ، يشارك بالاستماع ، عندما يقدم الى كل منهم كوب الشاى يبرز من سطحه عود نعناع أخضر ، يصغى الى آهة ارتياح بعد الرشفة الأولى ، « الله يا عم خضر » ، عندئذ يدير وجهه الصامت اليهم ، يتأمل الوجوه التى تشبه بعض ملامحها ابنه بكر ، يرق قلبه ، عبر السنين لم يجلس ساعة كاملة الى بكر ، يعود فى المساء ليجده نائما ، ويقوم مبكرا فى الفجر فيمد الغطاء على جسد ابنه أو يعدل وضع الوسادة تحت رأسه ، يلفظ البسملة ، ينصرف اطمئن الى تفوقه فى المدرسة ، وعناية المرحومة بولدها ، عندما انتقل للمدرسة بالقاهرة لم يسمع عنه خبرا يضايقه ، فى الأجازة لم يسمح له بالاقتراب من النصبة أو مساعدته ، لم يعرف شيئا عن أصحاب ابنه ، الأماكن التى يرتادها ، لم يجحده لكنه تمنى أن يريحه من هذه الوقفة التى أنهكت عمره ، اقتطع ثلاثة جنيهات من مكافأة التفوق ، صار يرسلها شهريا مع سـائق عربة نقل سويسى ، يقوم السائق باعطاء النقود الى امرأته التى توصلهم الى أم بكر ، عندما عرف خضر بذلك أول شهر ، تمنى لو أرسل الى ابنه يطلب منه ألا يفعل ، لكنه منذ فترة يشعر بتعب ، الشـاى غال ، والسكر ، دعا له طويلا فى مسجد سيدى الغريب ، لكنه بقى بعيدا بشكل ما عن ابنه بكر ،خلال فترات الدراسة يحن اليه خضر ، يفكر ، انه عندما يجىء فى العطلة الصيفية الطويلة سيغلق النصبة ، يرتدى أحسن ما عنده ، يصحب ابنه لزيارة بعض المعارف ، الجيران ، للنزهة على ساحل بور توفيق يجلسـان بمقهى أبى رواش ، يصفق ويجىء خليل الجرسـون ويسألهما عما يريدانه ، يعلو صوت المعلم أبو رواش ، (هات واحد شاى على حسابى للدكتور بكر) ، تمضى الأيام ، يجيىء بكر ، تظل كلماتهم المتبادلة قليلة ، اذا لمحه واقفـا أمام مقهى أبى رواش مع بعض أصحابه يدور راجعا ، أو يختفى عند أول منحنى ، لا يريد أن يحرجه ، ملابسه وقت العمل مبللة ، يده لا تخلو من صينية فوقها

اكواب وفناجين ، اما فارغة أو ممتلئة ، لا يستطيع اغلاق النصبة يوما واحدا ، انه فى حاجة لكل قرش يأتيه حتى يأتى بأحسن الطعام لبكر اثناء بقائه معهم ، حتى لو تفرغ له ، كيف سيمشيان معا ، لبكر أصحابه ، ورحلاته التى لا يعرف عنها شيئا ، لا يبغى مضايقته عصر أحد الأيام فوجىء بابنه يمر أمام النصبة ، تلاقت عيونهما ، رفع خضر يده بالتحية ، « تفضل يا بك » ، نظر اليه بكر بدهشة ، لم يعلق ، انقبض قلب خضر ، نفس ايقاع كلماته الذى يخاطب به الموظفين المحترمين ، بعد رحيل المرحومة وافتتاح بكر لعيادته مضت أيام عديدة بدون أن يلتقيا ، أول كل شهر تصله حوالة من بكر ، يستبدلها من مكتب بريد الأربعين ، يقول له الموظف « ربنا يخليه لك » ، تلك الجنيهات العشرة ما تبقى من بكر ، فى لحظات اقتنع بأن هذا طبيعى ، ان بكر أصبح طبيبا ، له زملاء محترمون وزميلات يرتدين المعاطف البيضاء ، ويعلقن السماعات الطبية ، كما أن شهرته واستقامته ذائعتان ، الناس تتوافد على عيادته بالدرب الأحمر جعل قيمة الكشف عشرة قروش فى وقت ارتفع فيه سعر كل شىء ، ليس من المعقول أن يشغل نفسه بأمور أبيه العجوز ، ثم انه يقوم بالواجب ، لم ينسه شهرا واحدا ، ان صحته تساعده على الوقوف امام النصبة والحديث الى هؤلاء الجنود ، تساءل كثيرا ، لماذا لم يتكلم يوما مع بكر كما يتحدث اليهم ؟ مرجان النوبى قبل اختفائه حدثه عن خطيبته وعن همومه فى جمع المهر ، وتخيله للبيت ، ونفقات العرس ، هل أسر اليه بكر بأشواقه تجاه فتاة أحبها ، هل حدثه عن زميلاته اللاتى زاملهن فى الجامعة ؟ رجب جندى المدفعية وصف له الطابق الثانى الذى شرع والده فى بنائه ، عندما ينصرف كل مرة يطلب من عم خضر ان يدعو له ، أن يرضى عنه ، عندما يبدأ قصف المدفعية المتبادل يرفع يديه طالبا من الله حماية رجب ، قصف المدفعية يعنى عنده رجب ، اذا اغارت الطائرات على المواقع خارج المدينة فهى تقصد رجب ، كثيرا ما يلتفت الى بعض زبائنه الذين

يصمتون فجأة عنـــد بدء الانفجارات يومىء قائلا « مدفع رجب اشتغل » ، تقسو ملامحه اذ يصغى الى شكوى منصور عامل المطبعة والمجند فى سلاح المهندسين ، صاحب المطبعـة رفض تقـــديم اى مساعدة اليه بعد تجنيده مع انه خدمة سبع سنوات ، وعندما نزل اول أجازة رأى عاملا آخر مكانه ، أدركتـــه دهشـــة ، يصف خضر الرجل بأنه حرامى ولن يبارك الله له فى ماله أو مطبعتـــه ، يتحدث بصيغة الجمع « نحن نجاهد ومن يضرنا لن يسامحـــه الله أبدا » ، يبدو منصور وكأنه قطعة منه ، ما لحقه من ضرر حاق به أيضا ، انه يسأل محمود الساعاتى عن والدته قبل أن يقدم اليه الشاى ، يقول محمود ان الضغط يرتفع أحيانا ولكن السكر يتزايد ولا منفذ منـه الا الرجيم وهذا يحتاج الى نقود ، طبيب المستشفى لا يراعى حاله عندما يقول لأمه .. كلى ربع فرخة مسلوقة يوميـــا و ... العين بصيرة واليد قصيرة ، يصمت قليلا ، يتساءل ، لماذا أصيبت أمـه بالسكر وهو مرض يقولون انه لا يصيب الا الأغنياء ، قبل ابتعـــاد محمود يدخل ذراعه فى السير الجلدى الذى يشد البندقية الى كتفه يقول برجاء عظيم « والنبى أدع لها فى سيدى الغريب يا عم خضر » ، فى أحد الأيام بدا ساهما ، انتقل خضر الى جواره ، أحاط كتفيـــه بذراعه ، وهذا لم يفعـــله أبدا مع بكر ، قال محمود انه وجد أمه منهكة فى أجازته الأخيرة ، لكنها تماسكت ، نزلت السوق ، اشترت خضارا وطبخت له ، لم تشك صداعا أو وجعـــا ، فى الليل سهرت تغسل ثيـــابه ، قال محمود انه يجلس ساعة بأكملهـــا الى أمه ، لا ينطقان حرفا ، لكن كلا منهما يدرك تماما أحوال الآخر ، ما يفكر فيه ، ما ينبغى قوله أو اخفاؤه ، قال ان الوقت لا يتســـع لأطبـــاء المستشفى ، قال محمود أنه يعرف طبيبا ابن حلال فى مصر ، يحب الفقير ، قال محمـــود معاتبـــا ، هل نسيت يا عم خضر ، أمى فى الاسكندرية وطبيبك فى مصر ؟ ، فى تلك الأيام بدا خضر وكأنه يعيش المدينة لأول مرة ، هجرة جيران العمر ومجيىء هؤلاء الشباب بدل

كل شيء ، خلال الفترات القصيرة التى قضوها معه ، ارتاح لأول مرة بعد عمر طويل من وقفته المستمرة أمام النصبة ، فى لقاءات سريعة عرف عنهم أكثر مما عرفه عن الأسطى سيد الحلاق الذى جاوره سنوات ، يمضى محمود أو حسين أو سعيد جندى المظلات ولا يدرى ، هل سيلتقى بهم مرة أخرى أو لا ؟ يبدون وكأنهم يحرصون على أن يتركوا لديه أكبر قدر من تفاصيل حياتهم وحاجاتهم الصغرى ، أثناء مرور بعضهم السريع بالسيارة يلقون اليه بخطابات يطلبون منه أن يرسلها من مكتب البريد ، جاءه مرجان يوما بأكثر من عشرين خطابا ، كل مظروف لصق عليه طابع البريد ، بدا مرجان متعجلا ، وحدته ستكلف بمهمة ربما غابوا فيها زمنا ، وزملاؤه لن يستطيعوا النزول فى اجازة أو المرور العابر بالمدينة ، رجا عم خضر أن يرسل هذه الخطابات فى نفس اليوم من مكتب البريد الرئيسى ، عد المظاريف ، أحضر جريدة قديمة لفهم بها ، مضى عبر حوارى زرب ، الى شارع الشهداء ، عوت صفارات انذار الطيران ، لم يتوقف ، ترك النصبة مفتوحة ، فقط هدأ المواقد ، طلب من موظف البريد أن يحصى المظاريف ، انحنى براسه ينظر عبر الشباك الضيق يحاول متابعة العد ، عندما خرج من المكتب ابتل قلبه برضى ، لم يهتم كثيرا بانفجار مكتوم بعيد ، ولم ينتظر انطلاق صفارة الأمان ، اذ أن السويس لم تعرفها فى تلك الأيام ، تدوى صفارات متقطعة فقط ، أما الأمان المتصل فلا محل له فى المدينة أو فى ايقاع حياتها ، أثناء اقترابه من النصبة حياه أربعة جنود وضابط شاب برتبة ملازم ، ابتسم ، قال ، تفضلوا . . . صاح أحدهم . .

مجهود حربى ؟ ، قال خضر مشيرا بأصبعه الى عينيه . . « من دى . . ومن دى » ، لا يذكر انهم مروا به ، أو جلسوا عنده ، لكنه ائتنس بهم ، أضحكوه بمرحهم ، اعتذر اليهم عن عدم وجود نعناع وقال انه سيمضى الى الجناين ليشترى نعناعا أخضر ، فى عصر اليوم مر به هريدى جندى البحرية الصعيدى ، لا يراه الا

أثناء نزوله الأجازة ، أو عودته منها ، ربما لابتعاد موقعه ، قدم اليه لفافة صغيرة ، وقال ان أمه أرسلتها خصيصا الى حصر عندما حكى لها عنه ، صاح خضر عندما رأى هريدى منصرفا ، تفضل شاى .. ابتسم هريدى ، سيأتى اليه بعد ستة وعشرين يوما عند عودته الى بلدته اذا قسم له الأجل ، قاطعه خضر « باذن الله » ، سيشرب كوبين ، أحدهما مجهود حربى ، والآخر على حسابه ، فى الليل يصغى خضر الى السويس ، الى الطلقات المتقطعة ، سنين طويلة قضاها أمام النصبة لم يحاور مخلوقا ، صحيح ان أصحاب الدكاكين أحبوه وأثنوا على شايه ، وتصدوا لمن حاول مضايقته ، لكنه لا يذكر أنه تبادل معهم الحديث يوما لمدة دقائق ، بل انه خلال السنين العشر الأخيرة وصل الى معرفة كاملة بأمزجتهم وأحوالهم ، بجيئه صبى المعلم فسدق ، يعرف ان المطلوب شاى على ماء أبيض مغلى ، يصيح الأسطى سيد الحلاق ، لا يومىء حتى برأسه ، فنجان قهوة مضبوطة من البن المحوج ، أثناء توصيله الطلبات يزعق عليه هذا أو ذاك ، واحد شاى يا عم خضر ، واحد قهوة يا عم خضر ، جنزبيل يا عم خضر ، يعرف لمن يعد الشاى الخفيف ولمن يضيف قدرا من اللبن ، حتى كمية الجنزبيل بدأ يشتريها طبقا لحاجة زبائنه عنده أربعة يشربون الجنزبيل يوميا ، عرف عنه صمته ، سعيه الهادىء فى الطريق ، استجابته السريعة لما يطلب منه ، لم يحدث الا نادرا ان قال له البعض « تأخرت يا خضر » ، لكنه لم يقف أمام دكان ، لم يجلس على مقعد فى الوكالة ، لم يتحاور ، لم يشك اليه أحدهم ، لم يصغ ، فى الطريق تصل الى أذنيه جملة عارضة يقولها أحد زبائنه يعرف أنه المقصود بها .. « هل ترى هذا .. انه يربى طيبا .. » ، ربما اضطربت خطاه خجلا لكنه لا يتوقف ليعلق ، مع مرجان وكمال وسعيد ، معهم ضحك ، وتحدث ، وجلس على الدكة التى أعدها لراحة الناس ولم يقعد عليها يوما ، لأول مرة تمتد أيد لتساعده فى عمل المشاريب ويتقبل هذا راضيا ، بل انه ترك لهم

« العدة » كلها يوما وجلس يتفرج عليهم ، عنـــدئذ قدم له محمود الاسكندرانى كوبا من الشاى وقال ، انت اليوم زبون وهذا الكوب مجهود حربى ، لم يفكر فى الاســتعانة بشخص ما ، راودته الفكرة اثناء دراسة بكر الثانوية ، أن يستخدم صبيا فى توصيل الطلبــات ويتفرغ للعمل أمام النصبة ، لكنه تساءل .. كم سأعطيه .. خمسة عشر قرشا أو ريالا ؟ بكر أولى به ، لأحتمل قليــلا ، انه يرى كل شىء قضى بجواره سنوات لأول مرة ورواده الجـدد حوله ، كيف سيمضى الوقت عليه فى الهجرة ؟ بعد عمر قضاه واقفا هل يتحول الى قعيد يتقاضى اعانة تهجير ؟ يعود الى صحتـــه ، تكف يده عن اذابة السكر وملء الأكواب ؟ عندما ألح عليه الموظف ، ضايقه ، أخبر سالم المزارع من كفر الشيخ وجندى المشاه ، وفكرى الممثل الذى لا يكف عن ترديد .. « سمعت آخر نكتة ؟ » والشاويش عوض المتطوع ، قال انه سيذهب الى مصر ليكلم بعض ذوى النفوذ حتى يتوسطوا له .. قال عوض ، وأين سنشرب شايك ؟ مد خضر يده مشـــيرا الى النصبة ، قال ، عندكم السكر والشاى ، يكفى حتى أرجع ، ضحك فكرى .. النصبة كلها ستصبح مجهودا حربيا ..

حوادث عارضة :

أثناء جلوسه ببهو العيادة مرتديا جلبابا مكويا ، تذكر دخــوله الليلى على بكر ، تأمله وجهه النائم ، كأن شخصا روى له ما جرى ، سنوات كثيرة مرت ، قال لنفســه بكر ابن حلال ولا ينسانى ، تابع دخـــول المرضى وخروجهـــم ، يئز الجرس أزيزا مختصرا فيقوم التمورجى ، امرأة ترتدى ملاءة لف ، تحمل طفلا ، تدعو للطبيب ابن الناس ، تدرك خضر راحـــة ، يود مقـــابلة بكر بسرعة ، لو قال للتمورجى .. أنا ... سيدخله فورا ، ربما خرج بكر بنفســه مرتديا معطفه الأبيض ، نظارته ذات الأطار المعدنى ، خضر يتـــأمل غرفة انتظار الرجال ، حجرة انتظار الحريم ، الحاجز الأبيض ، منضدة

مستديرة فوقها مجلات عديدة وصحف ، لا يعرف متى استأجر بكر هذه الشقة ؟ ماذا قال للتمورجى عندما اتفق معه على العمل ؟ ماذا يقول ابناء الحى عن ابنه ؟ كيف يحييهم عند وصوله ، يقولون بارتياح .. الدكتور وصل .. شابة قصيرة القامة تدخل من الباب ، تحتضن كتبا ، تتدلى من كتفها حقيبة قماش ، تومىء للتمورجى ، تقطع الصالة بسرعة ، يقطب خضر عينيه ، عطر خفيف سبح فى الجو بعد عبورها الواثق السريع ، هل جاء فى وقت غير مناسب ؟ ام تنتظر ، لحظ استياء على وجوه المنتظرين ، سمع امرأة تقول : « أصلها زميلة .. » ، من هذه ؟ تعرف عن بكر أكثر مما يعرف ، فرح ممزوج بخجل يدركه ، لماذا يتخيل بكر صغيرا دائما ؟

رجب محمود ..

يصيح التمورجى ، للحظة لم ينتبه ،

رجب محمود ..

ينتفض واقفا ، ابدى بكر دهشة صادقة ، احتج ، كيف يدخل باسم يجهل صاحبه وهو صاحب الفضل على كل هذه العيادة ؟ ام يدرك كيف يجيب خاصة عندما انتبه الى وجود الفتاة ، ابتسم بكر ..

أبى ..

خطت نحوه ..

أهلا عمى ..

نظرتها الى بكر موجزة ، اعتاد كل منهما الآخر حتى ليفهما بعضهما بدون ألفاظ مسموعة ،

الدكتورة صفاء زميلتى ..

أومأت ، مضت تزيح الستائر المسدلة على النافذة العريضة ،

عادت ترتب بعض الكتب ، فتحت درجا واوشك كتفهـا أن يلامس بكر عنـدما استدارت وراء المكتب قليـلا ، تناولت قلما ، تعرف مواضع الأشياء كلها ، جلست فوق مقعد من الصاج الأبيض ، بدأت تكتب ، أدرك خضر حنينا الى المرحومة ، تذكرها اذ تفتح عينيهـا بمجرد استيقاظه ، كأنها تدرك بحواسها متى ينتهى نومه ، تقوم ، تسبقه الى اعداد الشاى والافطار ، الى يديها اذ تدلكان ظهره عندما يشكو وجعا سببه وقفته اليومية الطويلة ، سـأل بكر عن رجب محمود وهل يعرف شخصـا بهذا الاسم ؟ قال خضر انه جنـدى بالمدفعية ، صمت ، هل ارتفـع صوته أكثر مما يجب ؟ أوشك أن يقول ، رجب يشرب عنـدى من شاى المجهود الحربى ، ليمسك لسانه ، قال بكر لصفاء ان والده يرفض مغادرة السويس .. أطرق خضر ، نظرات صفاء الجريئة مصوبة نحوه ، قال انهم يريدون منه مغادرة السويس .. يريدون تهجيره ، انه يرجو من بكر وساطة ما ليبقى ، قال خضر لنفسه أن طلبه الوساطة أمام صفاء سيرفع قدر بكر فى عينيها ، فوجىء بابنه يقول ..

انت يجب أن تبقى معى ..

كيف ؟ لم يدرك كيف ؟ هل يناقشه أمام البنت ؟ والسويس ؟ هل من المناسب أن يتحدث عن النصبة ، وعن الشاى ، وعن الزبائن الذين أحبوه ، وائتمنـه كل منهم على حاجـة ما أو سر خاص ، أبدى بكر اصرارا وقال انه يجب أن يستريح ، فى الأيام التالية طاف خضر بالأولياء ، زار الحسين ، صلى فيه المغرب ، والعشـاء ، دعا أمام المرقد أن ينجى كل من يعرفهم أو لا يعرفهـم ، بعد أن اغلق المسجد أبوابه دار حـوله ، أوشك أن يجلس فوق الرصيف بجوار بعض الفلاحين ، تذكر انه الآن فى القاهرة ، ربما تصادف مرور بكر ، فى ظهيرة أحد الأيام جلس فوق دكة مجاورة لنصبة شاى بالقرب من سيدى الشعرانى ، سأل صاحبها عن سعر الكوب ، كم يبيع يوميا ،

عندما لاحظ تساؤلا صامتا قال انه صاحب نصبة شاى فى السويس بعكس ما توقع أبدى الرجل تحفظا زائدا ، سأل بجفاء ، هل هاجرت من السويس ؟ هل ستفتتح نصبة هنــا فى مصر ؟ ، فى البيت يرى ارهاق بكر وتعبه ، أثناء تناولهما الشاى ، يسأل نفسه ، هل رشف الشاى بصوت مسموع ، لم يتبادلا أحاديث طويلة فى الليالى التى يعود خلالها متأخرا ، أثناء النوم يتقلب بحذر شديد ، ربما تسبب طقطقـــة السرير ازعاجا لبكر الذى ينام فى الحجرة المجـــاورة ، يستيقظ كثيرا ليسأل نفسه ، هل ارتفع شخيره ؟ فى الصباح يكتم سعالا ، يبدو النهار المقبل غريبــا ، ماذا سيفعل ، ماذا سيقوم به بعد خروج بكر ؟ يدور حول نفسه أثناء مشيه فى الطرقات ، يتـأمل وجوه المارة ، يتابع ايقاع المشى السريع للناس ، كأنه يرتدى ثوبا به رائحة عرق الغير ، افتقد الترقب الليلى اذ تهـــدر مدفعية رجب طويلا ، تدرك المدينة أن رجالا عبروا فى دورية الى الشرق ، فى معظم الأحوال لا يخطئون ، يصدر البلاغ ، يردد الراديو ، عبرت قوة من رجالنا شمال بور توفيق .. أو جنوب حوض الدرس قال لمرجان انه يود العبور معهم ، قال مرجان ضاحكا قبل اختفائه .. سيحدث يوما يا عم خضر .. تمنى لو عاش حتى يرى هــذا اليوم ، قال انه سيحمل كل ما فى النصبة ويوزعه هنــاك على الرجال ، كل ما لديه سيصبح مجهودا حربيا ، ماذا لو جرى ذلك أثناء بقائه هنا ، بين كتب بكر ، وأوراقه ، وأدراجـــه المغلقة ، جاكتاته الأنيقة ، ماذا لو ذهب الجدعان كلهم الى الشرق وهو هنا لا يدرى شيئا عن أرقام التليفونات التى يديرها بكر ؟ المواصلات التى يركبها ، أصدقائه ؟

حوادث تمهيدية

لم يقل خضر لأحــد كيف حصل على تصريح بالاقامة ! لم يتغير شيء سوى موقع النصبة ، نقلها رجب وثابت وكمال أثناء غيابه من تحت الرصيف الى مدخل البيت خوفا من عربات النقل المسرعة ،

لم يغير موقع شرفته ، باستطاعته أن ياوى الى اى شــقة فى البيت الذى خلا تماما ، لم ينزل الى الطوابق السفلى ، احيانا يستضيف احد الجنود الذين لم يلحقوا بآخر اوتوبيس ، قد يترك الجندى جزءا من متاعه ، فى حجرته بطاطين رمادية ، حقائب سفر ، ســـترات مدنيــة ، يضحك فكرى قائلا أن سر عم رجب باتع ، جميع البيوت المحيطة به اما تهدمت أو جرحتها الشظايا ، أما البيت الذى يسكنه فلم يمس ، خلال تلك الشهور علم الجنود بابنه الطبيب ، يوما سأله لطفى المنياوى مداعبا « الولد يقوم بالواجب يا عم خضر ؟ » ، نظر اليه خضر معاتبا ، قال ان بكر ابن حلال ، يراعيه ، يرسل اليــــه ما يكفيه ، عندما زاره فى مصر وأقام عنده ترك له غرفته لينام بها ، مضى معه الى حديقة الحيوانات ، والأوليــــاء ، اغلق عيادته ليقيم معه ، يستفسر عن أدق أحواله ، يسكت خضر قليلا ، يطلب من الله أن يسامحه ، هل من المعقول أن يشوه سمعة بكر بلســــانه ؟ ، ثم يسأل محدثه ، ألن يأتى الفرج قريبا ، والفرج فى لغته ولغة الرجال يعنى بدء الحرب ، أن كثير من الجنـــود يجيبونه ، « والله عايزين نخلص يا عم خضر .. ربنا يسهلها » .

مشـــهد اخـير

الساعة ٦٠٠ ، صباح الأحد ٧ أكتوبر

طــوال الليـــل لم ينم ، لم يغمض له جفـــن ، ليس بسبب الانفجارات التى لم تهدأ ولم يعهد مثلها من قبل ، نزل من الحجرة ، اصغى الى الراديو مع بعض رجال المقاومة ، لكن نبضــا خفيا بدأ يسرى فى المدينة ، كأنها رحم يستقبل اول اشارات الجنين ، نبض يوحى بكل ما يتم فى الظلام ، فى الشرق ، قال للرجال انه مع النهــار لن يبقى دقيقة واحدة فى السويس ، قال انه ســيذهب الى الشرق وراء الجدعان موفيا نذرا قطعه على نفســـه أمام عزيز غال اسمه مرجان اختفى منذ ثلاث سنوات .

مع أول ضوء احتوى النصبة بعينيه ، فى فمه مذاق صباحى جديد ، انفجارات متتابعة ، متتالية ، من كل الأنواع ، صاح رجل فى مكان قريب :

« والله زمن يا صالح ... » .

هدير بعيد ، يتذكر بسرعة ذهابه الى بكر أثناء امتحان الشهادة الاعدادية حاملا لفافة ورق بها رغيف وقطعتى لحم ليأكلهما فى الفسحة الفاصلة بين فترتى الامتحان ، تناول الجردل الفارغ المخصص لغسيل الاكواب ، وضع موقد البريموس رفيق العمر ، هزه قليلا ، تأكد من امتلائه بالكيروسين ، أثناء اشتعاله يدرك الخلل الطارىء من صوت النيران ، لف جميع الأكواب الزجاجية فى جريدة قديمة ، كل السكر ، كل الشاى ، لم ينس حتى أوراق النعناع الجافة ، أين الملاعق ، لن يدع أحدا يذيب السكر ، لا وقت لديهم .

قطع شوارع الأربعين مسرعا فى اتجاه الهاويس ، يحفظ السويس شبرا ، شبرا ، سيعبر أقصر الطرق الى الموضع الذى نصبوا المعبر عنده ، سيضع العدة فى حفرة على جانب الطريق ، يملأ أكبر براد عنده ، قبل مغادرته النصبة التى أصبحت فارغة تماما الآن ، قال له رفاعى السباك أن فلاحين من الجناين عبروا بأقفاص الطماطم والبلح وأفطار ساخن وراء الجدعان الذين باتوا كلهم ليلة أمس فى الشرق ، كلهم ، لن يمنعه أحد ، القدامى يعرفونه ، الجنود الجدد سيعرفونه من القدامى ، بعبورهم الى الشرق أصبحت الأرض امتدادا طبيعيا للسويس ، للمدينة ، سيبحث عن فكرى ، عن رجب ، عن لطفى ، عن كمال ، عن مكرم ، عن اسماعيل .. يهنئهم بأول صباحية فى الشرق ، ارتفعت الأرض به ، لمح زرقة القناة ، أعمدة دخان بدت متجمدة فى الصباح الباكر ، النقى ، تهوى انفجارات متتالية من السماء ، يمتد الجسر ، يصل الضفتين ، يربطهما ، يضطر الى التوقف لحظات ، سيارات نقل ضخمة تتجه

الى الجسر ، صناديق الذخيرة ، المستطيلة الرمادية ، جنود فوقها ، يلوحون بأسلحتهم ، أحدهم يصيح ..

عم خضر .. عم خضر ..

من ؟ لا يدرى من ؟ تبتعد الملامح مع اندفاع العربات المهتزة مع مطبات الطريق ، يحاول الاسراع بقامته المنحنية .وخطواته العجوز ، عرفه الجدعان ، لا يعرف من صاح به .. سيبحث عن كل أحبابه ، سيوزع كل ما لديه على من يقابلونه ، أمام الجسر ، فوق الجسر ، فى الشرق .. كل ما لديه مجهود حربى .. ربما فوجىء بمرجان يناديه يحتضنه ، يكشف عن صفين من أسنان لامعة ، يهتف مادا يده بكوب الشاى ..

« غيبة وطالت يا مرجان .. » .

يونيو ١٩٧٦

الـــــوجـــبـــــة



(١)

.. اليوم ، لم تتوقف طويلا أمام أى شقة فى الطوابق الخمسة ، اكتفت بايماءة رأس سريعة وكلمات قليلة لجاراتها اللاتى فتحن ابوابهن ، جلسن امامها يتحدثن ، عادة بعد رجوعها من السوق أو زيارة أحد الأولياء تتوقف ، تلتقط أنفاسها ، السلم المؤدى من طابق الى طابق يتكون من ثمانى عشرة درجة حجرية يحفها درابزين خشبى قديم يهتز اذا ما استند اليه أحد ، يدور حديثها مع جاراتها حول أسعار الخضر فى السوق ، الشكوى من غلاء الأحوال ، لقاء عابر بامرأة عرفتها يوما ، خبر زواج ، موت أحد المعارف ، استفسار عن احتمال تخفيض سعر الكهرباء ؟ ؟ اليوم لم تتوقف ، صعدت بحملها الثقيل ، حقيبة البلاستيك ، تبرز منها راس قرنبيطة ، قرطاس تبلل ورقه بضغط ثمرات الطماطم اللينة ، بصل ، كرات وبقدونس ، اليوم يجيىء من الشهر الى الشهر ، تنتظره ستة وعشرين يوما ، لا وقت تضيعه ، عندما وصلت السطح اضطرت الى التوقف لحظات قبل أن تقطع الخطوتين المتبقيتين الى باب الحجرة، الضوء منبسط ، دافىء ، عندا مساحة متساوية مغطاة بظلال سور

السطح الواطىء . سقف الغرفة مغطى بصناديق خشبية قديمة : قوالب أحذية خشبية ، صفيح ، زجاجات فارغة امتلأت يوما بعطور بأحبار بأدوية ، بقايا سكان قدامى تداولوا على الحجرة ، أكوام من التراب وقطع الحجارة ، أول الشتاء اهتزت جدران الغرفة برياح عالية الصوت ، نفذت من فراغات غير مرئيـــة ، تهز لهب المصباح اليدوى ثم جاءت الامطار ، ابتل الفراش ، سقط المطر على البلاط المكشوف بصوت عال كصنبور لم يحكم اغلاقه ، عندما وصل أبدى خوفا عليها واهتماما ، سألها ، هل ابتلت ؟ هل ارتعشت ؟ طمأنته كعادتها ، لو هاجمتها أقسى الأوجاع ، لو وخذتهــا الابر ، لا تلفظ آهة الم حتى لا تزعجه ، نزل يومها الى الحــارة ، عاد بمقطف ملأه ترابا وأحجارا صغيرة . صعد فوق ســـلم خشبى قصير أمسكته بيدها حتى لا يهتز ، نزل مرة أخرى ، فى نهاية اليوم كدس أكواما من التراب حتى لا يتسرب اليها المطر ، لم تخبره بدخول الهـــواء البارد كسن المقص من الشقوق الخفية فى الجـدران حتى لا يشغل وقت الأجازة كله ، انها تفك الآن حزاما من قطعة قماش مبرومة ، ربطت به ملاءتها اللف حول خصرها ، يبرز اصبع قدمها الكبير من تهتك أصاب مقدمة الحذاء البلاستونيل ، تنظر بارتياح الى الحجرة منذ ثلاثة أيام غسلت غطاء السرير ، أخفت المساحة المحترقة منــه ناحية الجدار ولفته باحكام حول المرتبة نظفت زجاج النـــافذة ، وأزالت عش عنكبوت تكون فى الركن الأعلى المواجــــه للسرير . فى الفراغ رائحة البلاط القـــديم الممسوح ، من المسمار المغروس فى الجدار يتدلى جلبابه ...

(٢)

تتطلع الى الظل ، تتعرف على الوقت من حركة الظلال الرمادية قبل المغرب بوقت كاف يتم كل شىء ، عنـــد وصـــوله لا تقوم الا بتسخين الطعام فقط ، بعد ان يخلع ثيابه ويغسل وجهــه فى دورة

المياه التى تقوم عنـــد الطرف الآخـر من السطح . يخرج مشمرا بنطلونه ، انها تخرج أوانى عديدة الآن ، صينية ، مصفاة طماطم ، هون نحاس قديم ، حلة الومنيوم متوسطة الحجم ، سكينا قصيرة ، تنزع القشور الخارجية للبصل ، تقطع رأس الثمرات بالسـكين ، طعناتها قصيرة موجزة بالطول ثم بالعرض . يتساقط فتات البصل، تتوقف ، تمسح انفها بظهر يدها ، تغمض عينيها ، تفتحهما ، آلاف المرات التى لا مست فيها الرائحة أغشية أنفهـــا لم تصبها بتبلد ، تمسح يدها بحواف جلبابها ، انها تبتسم ، يميل راسـها ، تصغو ملامحها بتأثير صور قديمـــة . يوم انتظاره يجيئها سيل من تلك الأيام ، تذكره الآن صغيرا ، يعود من المدرسة ، عندما يراها تقشر البصل أو تعصر الطماطم يصيح انه سينزل فى الحـــارة ويرجع ، تومىء موافقة ، لكنــه بعود بعد قفزة لعشر درجات من السـلم ، يسألها ، متى ستنتهين من الطبيخ ، تقول ، حالا ، يجلس القرفصاء، بجانبها ، عندما يبدأ اللون البنى يتسرب الى البصل تطلب منه أن يأتى بنصف رغيف ، تضع فيه قليلا من التقلية ، تطلب منـــه أن يتصبر حتى ينتهى الطبيخ ويجىء أبوه ، فى الصباح تعطيـه نصف رغيف محشو فولا ، اثناء نزوله السلم تصيح عليه كى يحـذر عبث الصبية ومحاولتهم خطف طعامه وكراريسه .

ان ملامحها تصمت فجأة ، تلم للحظات شفتيها الى داخل فمها، تعيدهما الى وضعهما الطبيعى ، تتحرك مرات متنقـلة بين الحجرة ودورات المياه وعشة قديمة صغيرة تضع بهـا الثوم والبصل وكيلو بامية مجففة وآنية فخار مكسورة العنق ، آخر ما تبقى لديهـا من أوان جاءت بها من الصعيد منذ سنين بعيدة ، تتـأمل الظل ، يغطى جزء أكبر من السطح لكنه لم يصل بعد الى صف البـلاط الرابع ، ما زال الوقت مبـكرا على آذان العصر ، يمكنهـا أن تصـلى الظهر حاضرا .

(٣)

تقول دائما عن موقد البريموس انه « عشرة » العمر : الآن تدفع الكباس ، تعلو النيران تتقدمها خيوط دخان تبدو ظلالها على البلاط اشد كثافة من قوامها فى الفراغ . تتراجـع الى الخلف حتى تنتظم النيران ، كثيرا ما قال لها ، ابتعدى حتى لا تلمس النيران شعرك ، قوائم الموقد الثلاث تميل قليلا عن وضعهـــا الطبيعى ، يبدو على اثنتين منها لحام حديث . لا يمر أسبوع الا وتنزل به الى ســباك قريب ، ان أقدارا كثيرة تراكمت على نحاســه الأصــفر ، تجمدت فكأنها جزء منه ، لم يستمر انتظــام النيران طويلا ، نفخت بفمها . صاحت ، « اعتدل والا خبطتك فى الأرض » ، يضحك عندما يسمعها تزعق هكذا ، تنحنى ممسكة الابرة تحاول تسليك ثقب الغـــاز ، ترتجف النيران مرات ، ثم تنتظـــم زهرة من لهب تتوج الموقــد النحاسى ، تقول بارتياح . .

« أكمل جميلك حتى تنتهى الطبخة . . لا تكسفنى » .

يأز صوت النيران ، بملعقــة صغيرة تفرغ الكوب الممتلىء حتى نصفه بالسمن ، تتحول القطع المتجمدة الى ســائل أصفر يزدحم بفقاقيع صغيرة متألقــة ، تتلاشى ، تنمو من جــديد ، يبدو السمن المنصهر متأهبا لاستقبال البصل والفلفل وعصير الطماطم ، أشعة الشمس تتدفق كالمرق الســـاخن ، أزيز الموقـــد يدركه وهن ، تصيح . .

« خلى عندك دم . . لم يبق وقت لدلعك » .

آخر اجازة لحظ تعبها مع موقد البريموس ، اقترب منهـا فى الصباح المبكر ، امسك كتفيها فى احدى المرات القليلة التى تتلامس فيها أيديهما ، انهما يتواجهان ، تتحرك فى حبه وعطفه فهو ما تبقى لها ينتابه حنين واحترام لأمه العجوز التى لم تهدأ طوال حياتها ، يقول

لزملائه انه لم يرها نائمة أبدا . ودائما تقوم قبله وتنـــام بعده ، تترقرق مشـــاعره ، لكنهما لا يتبادلان القبـــلات ، لا يعبران عما يشعران به بالكلمات غير انه فى آخر اجازة احاطها بذراعيه ، قال . .
« ولا يهمك . . بعد انهاء الخدمة سأشترى لك « بوتجاز » » .
همست بخجل وسرور . .
« تجيبه لبيتك يابنى ان شاء الله » .

(٤)

آذان العصر من المساجد القريبة ، مذياع بعيـــد ، تقوم الى السور ، تحتضن الفراغ بعينيها ، بعد صـــلاة الجمعة فى تلك الأيام البعيدة يجلس أول السلم ، يصغى الى برنامج ساعة لقلبك ، ربمـــا يقفلونه أو يخفضونه ، عندئذ لا ينهى قعدته مباشرة انما يمكث قليلا ثم يقطع السلم عدة مرات قبل أن يتكىء الى السور متأملا هذه المآذن البعيدة ، تنظر الآن الى مئذنة الحسين الرشيقة ، النحيلة ، طافت بالمقام ودعت له أن يشفيه من مرض أو يوفقه فى المدرسة أو يثبته فى الوظيفة ، منذ ذهابه الى الجهادية تدعو له ، لزملائه ، لكل أبنـــاء الناس الذين يعيشون فى الخطر ، تدعو لزملائه فى الملجـأ ، تعرف اسم كلا منهم ، تلفظ الآن دعاءها «ان شاء الله يا سيدنا الحسين» ، غبار معلق يضفى على البيوت البعيـدة رمادية داكنة ، أما البيوت القريبة فيميل طلاؤها على اختـــلافه الى اصفرار بتأثير الشمس المنكسرة باتجاه المغيب ، بعد ساعات سيتمدد فوق السرير وتقعد فوق الأرض ، رأسها يحاذى صدره ، يسألها ضاحكا عن الأخبار ، تحكى عن البيت ، عن الخناقات ، عما رأته أثناء زياراتها للأوليـــاء ، يقاطعهـــا . .

« خذى بالك وانت تعبرين شريط الترام .. » .

ستحدثه عن اهتمام محمد الخضرى بها وقوله بصوت مرتفع لصبيه اسماعيل « اقضى حاجة الست الحاجة .. ادع لنا يا أمى » وردها عليه « الله يبارك لك فى رزقك » : الآن تتطلع الى الطريق ، مارة ، جلابيب ، قمصان ، بنطلونات ، طفل يدحرج طوقا ، رجل يعانق رجلا ، يتراجع لحظة براسه ثم يستأنف العناق ، فوق سطح المصبغة يمشى رجل يحمل خيوطا صوفية مبلولة ، ينشرها على اعمدة خشبية ممتدة ، يصيح مناديا شخصا اسمه « حسين » ..

(٥)

بطرف لسانها تتذوق الطبيخ بعد أن أضافت ملحا ، منذ عشر دقائق أضافت نصف كوب من الماء ، فى نفس المكان الذى يأز فيه الموقد الآن جلست أمام الطشت ، فوق كرسى الحمام يقعد فى مواجهتها ، يحدثها عن أستاذ العربى الطيب ، وأستاذ العلوم القاسى ، الأول لا يضرب والثانى يقسو على التلاميذ ، تصغى اليه ، تدعو لأستاذ العربى وتلعن مدرس العلوم ، بين الحين والحين تطلب منه أن يناولها صابونة أو كوز الصفيح ، شاء المرحوم أن يعلمه حتى النهاية ، لكن الزمن يبدل ويغير ، الآن يعلو صوت المذياع ، تنظر الى الطريق ، ثلاث فتيات ، سقاء يدفع عربة محملة بقرب المياه ، يخفق قلبها فجأة ، جندى عند المنحنى ، لكنه قصير ، غطاء رأسه أسود اللون ، تستطيع تمييز قامته وطريقة مشيته ، تماما كالمرحوم والده ، انحناءة جذع الجسم الأعلى الى الأمام قليلا ، ربما لأن ثقل جسمه يستند الى أطراف أصابع قدميه ، تذكر الآن آخر مرة خرج فيها ، تابعته فى بداية النهار الرائق كالحليب ، فى الفناء رفع رأسه متبسما ، اختفى ، تابعته ، مدت جسدها الى أقصى ما تستطيع ، عند المنحنى توقف لحظة ، عدل وضع غطاء رأسه الأزرق ، كثيرا ما قالت لجاراتها انه فى الصاعقة ، عندما تسمع اسم منطقة الكاب

فى احد البيانات العسكرية يهبط قلبها داخل جسدها مقدار اصبعين متجاورين ، اذا تصادف لقاؤها باحدى صاحباتها وسألتها عنه ، تقول انه فى الكاب ، وتفكر ، « الصاعقة هناك » .

ان ازيز الموقد يتوقف اما لنفاد الكيروسين أو لعدم دفعها الكباس لفترة ..

مصباح ضيىء .

ان ثقبا يغرى صدرها ، ينبعث ضوء آخر من دكان سعيد البقال ايد خفية تنثر الضوء فى الفراغ ، قرآن من مذياع قريب « والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلا » .. تعجز عن تمييز الملامح مع نزول الليل لكنها تستطيع رؤية جرسون مقهى الميدان يرش الأرض استعدادا لاستقبال الزبائن الليليين . عند الطرف القصى للرصيف المحاط بسور حديدى يجلس شخص ما يدخن نرجيلة وضعت أمامه منذ دقائق ، ترفع عينيها الى السماء الرمادية ، ترجو النهار ألا يرحل والليل الا يقبل ، تود لو أغفت عينيها قليلا ، تفتحهما لتجده أمامها وأن يوقظها ، منذ سنوات طويلة لا تذكر مقدارها ، وضعته فوق السرير طفلا رضيعا نائما ، قعدت خارج الغرفة تغسل بعض ثياب المرحوم ، صباح شتوى عتيق لا تدرى الآن فى أى السنوات هو لكنها تعى حدة الهواء البارد وكثافة الغمام فى السماء ، اهتز الباب بتأثير الهواء ، لم تنتبه الا على صوت اصطدامه ، اغلقت الحجرة تماما ، المفتاح بالداخل ، دارت بعينيها حولها ، راحت ، جاءت ، نزلت الى جارتها الست روحية ، « الحقينى يا أم كاميليا » ، راحت تبكى ، طمأنتها ، جاءت أم سعدية أيضا ، وقفن يعالجن الباب ، انزوت هى بعيدا عنهن ، تعض اصبعها بقوة ، تبكى ، عندما نجحن وفتحن الباب ، أسرعت ، وجدته نائما ، لم توقظه الضجة ، احتضنته ، قبلته ، لم تتوقف عن البكاء ، صاحت الست روحية :

« الولد سليم والحمد لله .. والباب فتح .. لماذا تبكين ؟ اه .. لماذا تبكين ؟ » .

(٦)

تتوالد النجوم بكثـــافة ، تخف الرجل من الطرقات ، تبدو العدوة فى خطى العابرين ، يسرع الترام ، حركة ما بعد العاشرة ليلا أو الحاديه عشرة لا تدرى ، الظلال غطت الدنيا وأسود لونها ، كيف ستميز الوقت ؟ هل أخطأت فى حســـاب التاريخ ، بالضبط اليوم اتنين ، لم تجلس منذ ساعات ، يسرى نمل خشن تحت جلد ساقيها تستدير ، من تسأل ؟ الى أين تمضى . انها فى أشـــد الحاجة الى الحديث مع .. مع من ؟ لو جاء فى ميعاده لبدأت جلستهما الليليـــة منذ فترة ، تبتعد عن السطح ، تعـــود لتطل ، تزحف برودة على الطريق ، ربما عبره فى تلك اللحظات التى ولت بنظرها عنه ، تبتعد عن السور مرة أخرى ، لا تنتبه الى الموقد الهامد ، البـــارد ، ولا تشعر بوجود الاناء الذى يحوى الطبيخ فى فراغ السطح ، لم ترفـــع غطاءه ، لم تغرف منه ، لم يرفع اللقمة المغموســـة فى المرق ويقول « وحشنى أكلك » ، لم تمسك بقطعة لحم وتصر على أن يأكلهـــا ، يجيبهـــا بأنه شبع وأمام الحاحهـــا يقـول « تعزمين على .. أنا غريب ؟ » انها تعبر السطح بسرعة ، تذكر المرحوم اذا يعطى للصغير نصيبه ، ثم يعطيها نصيبها ، تقسم ما أخذته قسمين ، لا يمكن أن تدخل لقمة الى فمها لم يذقها ، تنزل الدرجات ، كتفاها هابطتان ، تحت حمل غير منظور ، تقف أمام باب الست روحية ، صوت أنات الأسطى حمـدى الترزى يطلب كوب ماء ، شبشب يأط فوق بلاط الصـــالة ، عبر الباب المغلق تشم رائحـــة هذا الحـديث الليلى والاسترخاء المتعب ، أبواب الشقق التى أغلقت ولن تفتح الا صباح الغد ، لا ينتظرون زائرا او قدوم غريب أو قريب ، شظايا ضحكة بعيدة ، كيف ستطرق الباب ؟ فراغ البيت مثقل برائحة هى مزيج

من آثار بصل ، أثاث قديم ، بلاط ممسوح ، مبيدات حشرية ، عطن غامض ، الشقق كلها مغلقة ، آخر اجازة قال نفس العبـــارة التى اعتاد لفظها عند ذهابه :

« اذا خبط أحد الباب .. لا تفتحى الا اذا تأكدت أولا .. من هو ؟ » .

(٧)

تضيع بقايا أضــــواء البيوت ، دوائر النور الشـــاحب تحت المصابيح فى الطريق البعيد ، انها وحيـــدة تماما مع الليل ، صفير قطار بعيد كالأنين ، ربما يجلس باحدى عرباته ، ربما يقترب الآن ، ربما يعبر الناحية الغربية ، يفتح باب التاكسى أو الأوتوبيس أو يقفز من عربة نقل ، ربما يحث الخطى ممسكا حقيبة اليـد التى تمتلىء بثيابه الداخلية وفوط الوجه ، اعتـادت أن تغســلها كل أجازة وتنشرها على الحبل الممتد فوقها ، ربما يجتاز نقطة ما على الطريق الصحراوى فى بطن الليل ، ربما يحملق بعينيه مفكرا فيهـــا وكيف سيلقاها .. ربما ...

مارس ١٩٧٦

حكايات الغريب



.. فى يوم السبت ٢ فبراير ١٩٧٤ بعد أن فتح الطريق الى السويس للمدنيين ، قام رئيس العهده المخزنيه بالمؤسسه العامة المعتمده للتوزيع والانتشار بكتابه مذكرة يعرض فيها موقف الأسطى عبد الرحمن محمود . حيث أن المذكور قام فى تمام الساعة السادسه من صباح ٢٣ أكتوبر بقيادة سيارة نقل من طراز فورد موديل ١٩٥٦ ، محملة بصحف وكتب ومجلات لنقلها الى مدينة السويس وتسليمها الى الحاج حسن السودانى متعهد التوزيع هناك . وخلال السنوات الثلاث الماضية أصر على قيامه بقيادة رحلات المؤسسة الى السويس ، واعتبر أكثر سائقى المؤسسة خبرة بهذا الطريق الصحراوى الذى تكثر فيه المنحنيات ويزدحم بالمركبات العسكرية . غير أن أخباره انقطعت تماما منذ ٢٤ أكتوبر ، وأصبح موقف السيارة الفورد والبضاعة غير معروف مما تسبب فى وجود فجوة فى دفاتر العهدة .

وفى يوم الأحد ٣ فبراير ، أبدى مدير المؤسسة حيرة عندما عرضت المذكرة عليه ، اذ ان الموضوعات التى يقرأها دائما ذات طابع متشابه مهما اختلفت مصادرها ، لم يسبق وقوفه أمام موضوع بهذا الشكل . لهذا رفع السماعة وطلب رئيس مجلس

الادارة . وبعد تفكير مشترك صدر قرار بتشكيل لجنة تسافر الى السويس وتستقصى الحقيقه حول مصير العهدة . وفى تمام الساعة الواحده والربع بدات الآنسة سنيه نسخ المذكرة الخاصة بتشكيل اللجنه بعد ان انهت مكالمه تليفونيه طويله مع احدى صديقاتها . وبعد ثلاثة أيام صدر القرار من أصل وخمس صور . يحمل توقيعا رئيسيا لمدير المؤسسه . وتوقيعا جانبيا لرئيس قسم العهدة ، وأسفل الصفحة اسم « سنية » التى نسخت القرار . ضمت اللجنة الاستاذ الجواهرى رئيس العهده . وسعيد طايل الموظف بادارة الأفراد . وشفيق نصرى الموظف بقلم التوزيع . عقد اجتماع عاجل حيث اتفق الأعضاء على صرف مبلغ لكل منهم كبدل سفر لمدة سبعة أيام ، وطوال مناقشة هذه النقطة لم يلفظ الأستاذ الجواهرى كلمة حتى لا يقال أنه اشترك فى مناقشة أمور مالية ستعود عليهم بالخير ، انه موظف قديم خدم من قبل فى ديوان الاطمئنان على صحة المواطنين ، عالم تماما بالأصول والقواعد . فى اليوم التالى عقد اجتماع آخر . فى بدايته ضغط الأستاذ الجواهرى زرا جاء بعده عامل البوفيه . طلب طايل أفندى شايا . أما الأستاذ شفيق فطلب قرفة ، اعتذر العامل بسبب ارتفاع أسعار القرفة وندرتها ، أبدى شفيق افندى ضيقا ، وقال ان البوفيه سيىء ولابد من تغيير المتعهد ، اعتذر ، أشار رئيس اللجنة الى المهمة الصعبة التى تنتظرهم ، واستفسر عن تصور كل منهما لخطة العمل الواجب اتباعها ، اقترح طايل أفندى البدء من هنا ، ضرورة الذهاب الى أسرة المذكور واستجواب أمه أو زوجته أو أولاده واستيضاح آخر تاريخ تواجد فيه بينهم ، أشار الأستاذ الجواهرى الى ملف أزرق. قال ان الخطوة الأولى من هنا ، تعجب طايل أفندى ، كيف فاتتهما الفكرة ؟؟ تم استعراض محتويات الملف واتضح انه يضم ما يلى ..

* شهادة ميلاد باسم : عبد الرحمن محمود على ، من مواليد عام ١٩٤٤ .

* اسم والده محمود على أحمد . اسم والدته نجية ، تم تطعيمه مرتين ، الأولى ضد الجدرى ، والثانية ضد الدفتريا ..

* شهادة حسن سير وسلوك ، موقعــة من موظفين اثنين ، مؤرخة ١٩٦٧/٨/١ .

* تصريح بممارسة القيادة على جميع أنواع السيارات .

* شهادة خبرة من المؤسســة المصرية العامة لنقل الأوعيــة الزجاجية الفارغة تبين أن المذكور قضى خمس سنوات فى خدمة الشركة ..

* شهادة معافاة من الخدمة العسكرية . نظرا لانه الابن الوحيد وعائل أمه ..

لاحظ الاستاذ الجواهرى خلو الملف من العقوبات أو الجزاءات طلب تدوين هذه الملاحظة ، اقترح طايل أفندى الذهاب الى أسرة المذكور غدا مع احتساب المدة التى سيقضيانها بالعطوف من الفترة المخصصة للمأمورية ، تمهل الاستاذ الجواهرى فى الموافقة ، خاصة وان الاقتراح يعنى تقاضيهم بدل سفر عن يوم سيقضونه فى القاهرة .. العطوف ..

بعد بحث استغرق ساعة . تخللها سؤال أصحاب دكاكين ، وصبية ، وجرسون ، وأمين شرطة ، وامرأة عجوز ، وصلت اللجنة الى المنزل رقم ١١ ، أثار ظهور الأفندية اهتماما فى الحى ، وسارعت امرأة تبيع المحشى الى الاختفاء ظنا منها بانهم من الصحة ، صاحت احداهن على الست أم عبد الرحمن لنكلم « البهوات » ، خرجت امرأة حافية . تحيط نصف وجههــا بطرحة ، أثار خجل أنثوى ما زال متبقيا مع العمر المتقدم تساءلت عن اخبار عبد الرحمن . من هيئتهم عرفت انهم جاءوا من أجل ابنها ، تطلعت الى الاستاذ الجواهرى ، أدركت من سنه وحركته البطيئة واحاطة الشابين به

انه اهم الثلاثة ، تقدمتهم عبر فناء به مياه غسيل لم تجف ورائحة عطن وزير يستند الى حامل معوج وسلم طويل بدون درابزين ، يؤدى الى مجموعة من الغرف المفتــوحة المتجاورة ، اطلت طفلة اختفت ، عادت ممسكة بطرف رداء امرأة عجوز ، وسمع صوت أنثوى يطلب من محمد سرعة ارسال أكواب الشاى الى أم عبد الرحمن عندما سمع الأستاذ الجواهرى صوت كباس موقد غازى صاح طالبا منها أن تحضر لأن وقتهم ضيق ، لاحظ شفيق أفندى صورة حجم كارت بوستال معلقه فى مواجهة الكنبة القديمة ، تتشبه الصور الصغيرة الثلاث فى الملف ، عينان واسعتان تحملقان الى الأمام ، على الاطار الأبيض أكلشيه أزرق « ستوديو الأزهر » . قالت ان احدا لم يدلها ، تمنت لو التقت بالبك المدير لكنهم لم يسمحوا لها بالصعود من الباب . قاطعها طايل أفندى قائلا ان البك حضر بنفسه اليها . قالت ان أحد زملائه كتب خطابا على لسانها الى مأمور القسم . والمحافظ . أخذه منها جدع طيب يرتدى قميصا وبنطلونا لم تره أبدا بعد ذلك . قالت ان عبد الرحمن هو ما خرجت به من الدنيا وهو سندها . بدأ لفظ « سندها » لشفيق أفنـدى كأنه عويل ، لاحظ وشما أخضر باهتا يتوسط جبهتها . تبـدو فى جلستها أكثر ضآلة ، فكر ، انها أم ، بحث الاستاذ الجواهرى عن ألفاظ مناسبة يصيغ بها عبارات المرأة المفككة فى المذكرة ، قالت ان ابنها كالريق الحلو ، لم يسمع حسـه أبدا ، لم يتشـاجر مع انسان أبدا ، لم يدخل قسم بوليس ، أثناء ذهابها الى المصـالح واقاربها الموظفين بحثت عن ملامحـه بين الوجوه . ركبت الترام وعبرت طرقات لم ترها . وجلست مرة بجوار شاب يقرأ جريدة . هل يوجد ناس فى السويس ؟؟ سألها ، هل انت مهاجرة يا أمى ؟؟ . قالت انها لم تر السويس أبدا ، سمعت عنها كميناء يذهب منه الحجاج الى مكة المباركة ، وعرفته بأن ابنها سافر كثيرا اليها .

لكنه لم يعد ، قال الشاب ، طبعا هناك ناس فى السويس يا أمى .
هل تصلهم مياه ؟؟ قال اطمئنى يا أمى الماء عندهم أكثر من هنا ،
سكت لحظه وقال ان عيونا خفية تفجرت من قلب الرمال . مياهها
عذبة حلوة تكفى بلدا . أشـــارت بأصبعها الى أعلى ، قالت ان
(جدعانا) كثيرين ماتوا . ولو تأكدت فلا حول لها ولا قوة .

هنا ضيق الأستاذ الجواهرى عينيه . طلب التأكد من آخر
مره حضر فيها عبد الرحمن الى البيت ، قالت انها تذكر خروجه
وكأن ساعة واحدة انقضت ، بعد نزول السلم طلع مرة ثانية ، قال
(خلى) بالك من نفسك ، نزل متمهلا نظر خلفه ثلاث مرات ، لو
ان نافذة الحجرة الوحيدة تطل على الحارة لتابعته ، لكنها تفتح
على منور داخلى تغلقها دائما خوفا من الأبراص والهوام ، قالت ..
مضى على خروجه مائة ليلة وخمس عشرة .. أتت بيدها حركة أيقن
شفيق افندى معها أنها لم تأكل وجبة كاملة منذ مدة . وأنها تعانى
الحاجة بعد انقطاع راتب ابنها . وانها ستبكى بلا انقطاع بعــد
انصرافهم ، ان حواسها واهتمامها كله من أجل استكشـاف أمر
ولو ضئيل يخفيه عنها هؤلاء الأفندية ، ينحنى الأستاذ الجواهرى،
لهجته بطيئة ، يقول ان السائقين يلفون ويرون الكثير من البـلاد
والعباد . ألا يحتمل لقاؤه بامرأة لفت عليه .. اغوته ..

(لا .. عبد الرحمن ما يعملها) .. قالتها باختصار شديد ،
تحاول اخفاء استنكارها كجزء من احترامها لهؤلاء الاغراب الذين
يمنون بصلة ما الى ابنها ، كل تصرفاته عليمة بها ، عندما حط عينه
على صفية المغربى ابنة جلول بائع العطور اخبرها . طلبت منــه
توفير بعض المال ، اقترحت عليه النزول ليعمل سائقا على التاكسى
لم يتزوج ، لم يقسم له نصيب من سنية ، ينظر الاستاذ الجواهرى
الى عضوى اللجنة ، لم يعد ما يقال مهما ، ان الساعة تقترب من

الواحدة . بعد نصف ساعة يصبح من المستحيل ركوب وسائل النقل تستمر أم عبد الرحمن . لم يسكتها وقوفهم . عندما فاجأت الصرعة أسامة ابن الست روحية جارتهم استغاثوا بعبد الرحمن نزل السلم يحمله . أيقظ الدكتور عبد المعطى الذى يسكن فوق عيادته . قال لو جاءته مثل هذه النوبة عليهم تغطيته بملاءة سوداء وأن يضعوا شيئا صلبا بين اسنانه .

ينزل الاستاذ الجواهرى . يتجمع صبية صغار . يبدو أن الست أم عبد الرحمن لاترقبهم الآن . تتحدث الى شخص ما ، بدأ هذا مفاجئا لهم بعد اعتيادهم ثبات ملامحها وجمود وجهها . تقول ان أول مرتب قبضه جاءها به ، قال انه يتفاءل عندما يعطيها أول خيره . أمام البيت تقترب منهم امرأة تحمل طفلا . تهمس . طوال اليوم على هذا الحال . ينام الحى كله فى الليل لكن صوتها لا يهدأ . تحكى عن عبد الرحمن ، مسكينة .. أصلها لم تر أبيض وأسود من ساعة غيبته .

((ملحوظة)) ..

يجب الاشارة هنا الى أن مهمة اللجنة عسيرة . اذ لم يسبق القيام بمثل هذه المأموريات . حرص الأستاذ الجواهرى على التزام الحذر بالنسبة لأى خطوة . لهذا عقد اجتماعا فور وصولهم السويس .طلب شفيق افندى ذهابه الى المستشفى فى الحال ، قرر الأستاذ طايل البقاء مع الأستاذ الجواهرى ليستريح قليلا من تعب الطريق . على أن يمضيا بعد الظهر الى مقر المحافظة . ومديرية الأمن لسؤال المختصين . وبدأ الاستقصاء الرسمى ، قام الاستاذ الجواهرى ليطلب أسرته تليفونيا يخبرهم أنه وصل السويس بخير ويطلب منهم الا يقلقوا وأنه فى أمان ، بعد عودته أكد على ضرورة تقديم تقرير مفصل عند نهاية كل يوم مدعم بالمستندات التى تدعم صحة ما يذكر فيه من احداث ، وتواريخ ، وأقوال شهود ..

المستشفى ..

اعترضه رجل يرتدى معطفا أبيض ، أبرز التصريح ، قال أنه يود لو قابل المدير شخصيا ، غير أن الرجل قال ، هذا الموضوع يصعب لأن المستشفى آوى جرحى كثيرين فى بداية المعارك ، مدنيين وجنودا ، حتى الرجوع الى سجلات المستشفى لن يفيد فى قليل أو كثير ، لأن الوقت لم يتح لتدوين الجرحى كلهم ، أما مدير المستشفى الذى عاش الحرب والحصار وداوى المرضى وعالج الجرحى فيشاء السميع العليم أن يموت يوم فتح الطريق وانتهاء الحصار ، قال ان الاهالى يعرفون الأغراب الذين احتجزهم قطع الطريق . نظر شفيق أفندى الى الأرض المبلولة . والممرضات يرحن ويجئن . ترى .. من رأى عبد الرحمن ، عض شفته ، سأل ، الا يمكنه التعرف عليه لو رأى صورته ؟؟ ابتسم الموظف ، قال ان طاقم المستشفى تم تغييره بالكامل ليلة أمس وانه منتدب من مستشفى قليوب ولا يعرف شيئا . ثم هناك استحالة التعرف على الشخص من الصورة . ربما حدثت به تشوهات أو اصابات بالوجه . ثم ان الانسان تتغير ملامحه تغيرا كبيرا زمن الحرب بتأثير المعاناة ورؤية الموت والقتال ، سكت الرجل لحظة ، وقال .. عموما اذهب الى قسم السجلات ربما دلوك على الاسم . لكن المسئولين عن الدفاتر والسجلات اعتذروا عن تقديم أية مساعدة لعدة أسباب موضوعية منها فقد بعض السجلات اثناء قصف مدفعى قام به العدو ضد المدينة أحرق جزءا من المبنى ، الثانى يتعلق بالوقت الذى يستلزمه حصر المستندات المتبقية والاشراف على تصنيفها . والسبب الثالث والهام ان كثيرين جدا لم ندون أسماؤهم ، وآخرين قدم لهم العلاج اللازم وخرجوا بدون تقييد أى مستندات بما صرف لهم من أدوية أو علاج لعدم توفر الوقت الكافى ولانشغال الممرضين والأطباء والموظفين فيما هو أهم مثل تصنيف المرضى وتوزيعهم على

الأقسام طبقا لنوعيات حالاتهم ، أمام باب المستشفى تساءل شفيق افندى ، هل جاء الأسطى عبد الرحمن الى هنا . هل خرج الى مكان ما ؟؟ فى الطريق الصحراوى على مسافات غير متساوية تبدو كومة حديد متداخلة ، ،يبرز منها اطار عربة ، اكياس قماش ، فردة حذاء راى بعينى عقله الأسطى عبد الرحمن يقود عربته فى صحراء ملتهبة، قدماه تضغطان دوسات السرعة ، قبضات نيران تومض هنا وهناك يتحرك الأفق حركة دائرية كأن اندفاع السيارة يبرز دوران الارض . لكن يجىء الوحش المعدنى هادرا ، يدوس السيارة يعلوها ، يتجاوزها ، على جانبى الطريق راى لافتات عبرية صغيرة ، زجاجات كوكاكولا وعلب طعام محفوظة فارغة منقوشة بالعبرية . ربما أحد الذين شربوا هذه الزجاجات داس عربة عبد الرحمن بدبابته .

أليس من المحتمل تعرض الاسطى عبد الرحمن لمثل هذا الموقف ؟؟

وقتها نظر اليه الاستاذ الجواهرى ، قال بلهجته البطيئة .. هذا ممكن .. لكن من يثبت هذا ؟؟

« من التقرير اليومى لطايل أفندى »

.. كما أفاد قائد عموم المرور أن نقطة المثلث بقيت تمارس عملها وتؤديه طوال يومى ٢٢ ، ٢٣ اكتوبر ، وعندما بدأت علامات الهجوم على المدينة استطاع احد الجنود أن ينقل الدفاتر والتصاريح التى تسجل حركة المرور من والى المدينة عبر الطريق الصحراوى ، وبالبحث ثبت ما يلى ..

« انه فى تمام الثامنة و٤٥ دقيقة دخلت العربة رقم ٦٧٠٧٣ . نقل القاهرة ، يقودها عبد الرحمن محمود ، رقم بطاقته الشخصية ٢٣٨٤٨ الجمالية ، وحامل تصريح مرور مستديم من والى السويس . وثبت أن هذه السيارة لم تغادر المدينة حتى صباح

٢٣ اكتوبر . وسألت سيادته عن احتمال مغادرتها بعـد مجىء قوات الطوارىء الدولية لكنه نفى ذلك ، لأن الحركة تمت بواسطة سيارات الأمم المتحدة . وتم استدعاء الجندى سيد أحمد اهل ، وهو الوحيد الباقى من أفراد نقطة مرور المثلث . أفاد الجنـدى المذكور انه فى صباح يوم ٢٢ أكتوبر دخلت عربة النقل المشار اليها قال انهم يعرفون سائقها لتردده المستمر خلال الحرب . وانه صاح من نافذة الكابينة بعد تدوين بيانات العربة « شدوا حيلكم ياأبطال » عاد فى المساء . لكن الظروف تغيرت اذ قطع اليهود الطريق فى عدة أماكن . كثرت الأخبار انهم فى الطريق الى البلدة للهجوم عليها . اشتد الطيران ، وجاء الفلاحون من (الجناين) وجنود شاردون . آخر عربة ظهرت أمام النقطة هى سيارة الأسطى كمال .

وهنا استوقفت الجندى سيد أحمد الأهل وبدات استجوابه بحضور قائد عموم المرور نظرا لتناقض أقواله .

س : من تقصد بالاسطى كمال ؟

ج : سائق اللورى المبين رقمه فى دفتر الحركة ..

س : انه اللورى المدنى الوحيد المبين فى هذا اليوم .. هل تقصد سائقا آخر ؟

ج : أقصد سائق لورى الصحافة ..

س : اسمه فى الدفتر عبد الرحمن

ج : ناداه الباشجاويش دائما .. ياكمال .. وعندما جاء الطيران يقفز معنا الى الخندق وسمعت الباشجاويش يقول له .. لا تخف يا كمال يابنى .. ورأيته ثابت الوجه متعجبا . فسألته الم ير ضربا طوال حياته . فقال انه جاء الى المدينة أمام الحرب لكن الأمور لم تصل الى هذه الدرجة من العنف . رفع الباشجاويش قلة ماء مكسورة الفوهة ، شرب ماء قال .. تشرب يا كمـال فهز رأسه قال انه ليس يعطشان ..

س : ألم يدخل لورى آخر فى هذا اليوم ؟ ..

ج : لورى واحد ..

س : ربما سمعت الاسم خطأ ..

ج : أبدا .. فى مرة بعد انصرافه وقف الباشجاويش ساهما ، وسمعته يكلم نفسه .. قال انه شبه ابنى كمال .. أى والله الخالق الناطق .. كمال ابنى ..

س : بعد انتهاء الغارة أين ذهب ؟؟

ج : عاد باللورى الى داخل البلد .. ولم تخرج ولم تدخل أى سيارة منذ هذا اليوم وحتى فتح الطريق .

ملاحظات الأستاذ الجواهرى :

.. ثبت أنه لم توجد سيارة نقل زرقاء رقم ٦٧٠٧٣ . خلال الحصار ، وأفادت المباحث الجنائية والمباحث العامة . والمباحث الخاصة بوجود حطام بعض السيارات المدنية المضروبة بعضها استخدم كمتاريس أو عوائق . أما السيارات السليمة فمحدودة ومعروفة ولم تستخدم على نطاق واسع نظرا لقلة البنزين أيام الحصار وقمنا بمعاينة حطام نقل لم يستطع أحد الاستدلال على صاحبها . وجدناها متفحمة تماما . منزوعة الاطارات . منضغطة فى بعضها لدرجة أن كابين القيادة اندمج بمؤخرتها . كما احترق طلاؤها تماما. وحاولنا العثور على لوحتى الأرقام لكن يبدو أن بعضهم انتزعها اذ وجدنا المسامير القلاووظ التى تربطها مفككة وملقاة . قمت باستدعاء صاحب ورشة سيارات وهو فنى معتمد لمعاينة الحطام مقابل ثلاثة جنيهات (مرفق ايصال بالمبلغ) . وأفاد أنها من طراز فورد . لكنه لم يحدد أية مواصفات أخرى ؟ ؟

« .. بزيارتى للمسئولين بالمحافظة أفادوا أنه لم يتواجد شخص بهذا الاسم خلال الحصار . مع ملاحظة أنهم قاموا بحصر

جميع الأهالى بالمدينة بعد معارك يومى ٢٤ و ٢٥ أكتوبر . لتوزيع المئونة عليهم . وقالوا ان الغرباء الذين احتجزوا بالمدينة معروفون وحالاتهم واضحة » ..

« .. لم يتعرف أحد من المسئولين بالمحافظة . وقوة عموم المباحث على صور المذكور ، ولم يدل أحد بما يثبت انه رآه قبل أو خلال أو بعد الحصار » ..

شفيق أفندى يحاول استقصاء الحقيقة ..

.. مساء اليوم الرابع للمهمة . بعد أن أجرى الأستاذ الجواهرى اتصالا بأسرته للمرة الثانية طمأنهم وطلب من أصغر أولاده الا يعاكس أمه . كما طلب من زوجته ان تستعجل قمصانه التى أرسلها الى الكواء قبل سفره ، وبعد اتخاذ طايل أفندى لعدة ترتيبات لشراء سمك من الخليج الذى بدأ الصيادون فى النزول اليه ، اتخذ الأستاذ شفيق أفندى طريقه لمقابلة بعض أبناء البلد من رجال المقاومة والمعروفين بين الناس باسم الفدائيين . أبدى أكبرهم سنا دهشته من هدف اللجنة . تساءل ما الذى ينتظر من سائق عربة توجه صباح ٢٢ أكتوبر الى السويس ولم يعد . حاول شفيق أفندى شرح الظروف والملابسات ولمح الى القوانين الجامدة والعهدة والمخازن . خجل . بدا يشرح أوصاف عبد الرحمن وطبيعة عمله . لم يكمل حديثه حتى قال أحد الفدائيين الأربعة « انه يتحدث عن الغريب » . دق قلبه . رأى الست أم عبد الرحمن تكف عن حديثها المتصل فجأة . يهز الأستاذ الجواهرى رأسه . يقول بعض معارف عبدالرحمن بعد سنوات ، ذهب ولم يعد ، قال قناوى الفدائى ، أن الغريب جاء مع الحاج حسن السودانى متعهد توزيع الجرائد والمجلات ، الحاج يعرف عنه كل شىء لكن المؤسف انه توكل على الله ، ذهب بطلا فى معركة قسم الأربعين ، عينا شفيق أفندى تحيطان بسرعة بالوجوه ، بكل ما فى القاعة ، بطاطين رمادية ، صناديق ذخيرة فارغة وزمزميات

مياه . مكان يأوى مقاتلين ، مكان اقامة مليئة بالحذر والترقب : لوحة ملونة ، فارس يرتدى خوذة ، يشهر حربة ، فوق رأسه كتابة واضحة « أبو زيد الهلالى » آخر تنفذ منه حربة اختفت بقاياه مع االوحة الممزقة . لابد أنها تنتمى الى أصحاب الشقة الأصليين . ربما لم يلحظها أحد حتى الآن برغم تواجدهم اليومى هنا .

يقول قناوى أن الغريب بدا حائرا عندما جاء الى قسم الشهداء مع الحاج حسن صاح كثيرون ان اليهود قادمون الى كوبرى الزراير . بدأ الملازم حسن ضابط الصاعقة فى توزيع رشاشات وقنابل ، قال الغريب لقناوى « فين كوبرى الزراير ؟؟ » .

أشار قناوى الى اتجاه المكان ، سأل ..

« تعرف تضرب نار ؟؟ » .

« ممكن أعرف » ..

ناوله قناوى رشاشا وثلاث قنابل خارقة الدروع . نظر الغريب الى السلاح . هذه الدهشة الخفيفة والحذر تجاه السلاح الذى من يامسه لأول مرة . قال قناوى ، هذه شرائط الذخيرة . حول المقبض اضغط الزناد . تتزايد الحركة بين الناس ، كوبرى الزراير . كوبرى الزراير ، قال الغريب ..

(آجى معاكم ؟) .

رآه قناوى يمضى مع الرجال . طلب منه الملازم حسن تدعيم الكمائن عند الهويس ، لم ير قناوى الغريب لكنه عرف أخباره من الذين حاربوا عند كوبرى الزراير .

سأل شفيق أفندى عن امكانية اللقاء بأحدهم . نظر قناوى الى زملائه . نزل ابراهيم الى مصر بعد فتح الطريق ، لكن حسن موجود ولم ينزل فى اجازة بعد ، تساءل شفيق أفندى عن حسن

هذا ، قالوا انه ضابط الصاعقة ، وانه حارب عند كوبرى الزراير، وصباح اليوم التالى اكد الملازم أول حسن عمار . ان الغريب لم يكن يعرف ملامح السويس لأنه سأل مرتين عن كوبرى الزراير أثناء توجه الكمائن اليه . لم يسأل خائفا أو مترددا . عندما تقدمت الدبابات رأى الغريب يتقدم ، يقف بطوله فى مواجهة الدبابات مخالفا كل القواعد التى يتخذها المشاة عندما يتصدون للدروع ، كان يريد الاقتراب الى أقصى حد ممكن من الدبابة . يبدو أنه صرخ بشيء ما . زعق . بدت حركة ذراعه عندما ألقى القنبلة الأولى ، انفجر الجسم المعدنى ، تصاعد دخان كثيف له قوام . أزت رصاصات البنادق الخارقة فى اتجاه أفراد العدو الذين قفزوا من برج الدبابة . بدأ الاضطراب على حديد الدبابة الثانية . دار المدفع الرئيسى الى الشمال ، ارتد مكانه ، بدأ الجسم الضخم مرتبكا قبل أن تمتد ذراع الغريب فى استقامة الى الخلف، ألقى القنبلة الثانية ، قال ان آخر مرة رآه فيها بين الدبابة الأولى والثانية ، غطى الدخان كل شيء ، أصدر أوامره بتغيير أوضاع الكمين . بعد انتهاء المعركة عادوا الى مكان الدبابتين المحطمتين ، لم يجدوا جثته قال انهم ذهبوا بعد وقف اطلاق النار لأن الحركة استحالت فى المدينة يومى ٢٤ و ٢٥ بسبب الرصاص الطائش ، قال انه سأل عنه ، من هو ، ما اسمه ، لقد سمع أثناء القتال أحد الرجال يزعق ، . يا مجدى . . فهل هو اسمه ، خاصة وأن كل أفراد الكمين معروفون بالاسم ولا يوجد بينهم مجدى لكن الذين تبقوا من الرجال لا يعرفونه الا باسم الغريب صاحب الحاج حسين السودانى . .

ملحوظة أخرى ...

قام الأستاذ الجواهرى فى اليوم الرابع بزيارة موظف كبير بهيئة الشئون الصحية اثر اكتشافه معرفة قديمة ربطت بينهما

يوما ، وبالطبع ورد ذكر الأسباب التى أتت بالأستاذ الجواهرى. قال الموظف انه لا يعرف شخصا حارب فى المدينة بهـذا الاسم ، لكنه سمع حكايات من بعض الأهالى عن سائق لورى قطع عليـه الطريق وحارب عند كوبرى الزراير ويقـال انه واجه الدبابات واقفا ، حتى انه اعتلى احداها ودمرها بقنبلة ودمر نفسه معها . وهنا قال الأستاذ الجواهرى انه جاء خصيصا من اجل هـذا الشاب ، تمهل صوته . بدا فيه فخر خاصة عندما بسط راحته على صدره قائلا :

« انه من عندنا واسمه عبد الرحمن محمود ..

فى الليل حكى الأستاذ الجواهرى لطايل أفندى وشفيق أفندى ما سمعه . وهنا أبدى الشابان حماسا وقالا أن هذا دليل واضح. لكنه هز رأسه حائرا وقال .. ربما ولكن من يتبت هذا ؟؟

من تقرير طايل أفندى ..

« وأجمع البعض على أن الأهالى سحبوا الغريب فى نفس ليلة استشهاده ، ودفنوه بسرعة بالقرب من الطريق المؤدى الى شركة شل . وأثناء الحصار قرر الحاج حافظ نقل الشهداء الى مقبرة واحدة داخل السويس . وعندما حفروا لنقل الغريب صاحوا الله أكبر ، الله أكبر ، مسجوا دمعا جرى ، وجدوا الجثمان على حاله ، مفتوح العينين ثيابه لم تبل ، قدماه حافيتان لأن حذاءه خلع قبل الدفن . بدت الدماء فوق قميصه طرية كأنه أصيب منذ لحظات ... » .

فى روايات اخـرى أكد البعض أن الشخص الذى نقلوه من المدفن غير الغريب . والصحيح أن الثانى انفجرت دانة فوقه تماما ولم يعثر له على أثر ، وأكد هؤلاء أن المكان الذى استشهد فيه تفجرت منه عين ماء عذبة فيما بعد خلال الحصار ..

قالت امرأة عجوز تعيش بجـــوار كشك الصحف الخاص بالحاج السودانى أن الشاب الغريب اسمه خلف رأته مرارا يجىء الى الحاج ، قالت انهما ذهبا الى كوبرى الزراير وحاشا اليهـود عن دخول البلد وماتا ، قالت انها ذهبت الى الكوبرى ، قالوا لها ارجعى يا وليه لأن المكان على مرمى النظر من اليهود ، لم تهتم لأن ما يربطها بالحاج عشرة عمر ، أما الشاب فحنت اليه ، قالت انها ذهبت لعلها تشم رائحة من أثر تركه فى مكان موته ، قالت أن خلف تحدث اليها كثيرا ، سألها مرة . لمـاذا لم تهاجر ، قالت انهـــا لا تطيق البعد عن السويس . أخبرته عن ابنها فى القاهرة ، متزوج وعنده أربعة أولاد ويعيش فى القلعة ، سألها لمـاذا لم تذهب اليه؟؟ قالت انه لا أحد يطيق أحدا فى هذا الزمان . بدلا من أن تثقل عليه وعلى امرأته فضلت البقاء هنا تستلقط رزقها من هنا ومن هناك. قالت ان خلف حن عليها وأعطاها خمسة وعشرين قرشا . وكلما جاء أعطاها حاجة ، عندما تجولت فوق كوبرى الزراير أخبـرها رجل يقيم بالقرب من المكان عن عصفورين لونهما أخضر ، ينزلان فجر كل يوم ، صوتهما أحن من الحنين ، وأطرى من قلب الأم ، يحومان قليلا ويختفيان فجأة كما ظهرا فجأة ، لم يخلفا ميعادا ..»

وقمت بتوجيه سؤال اليها عن الاسم الكامل للشاب ، قالت انها لم تسأله أبدا عن اسمه أو امرأته وعياله . لكنها سمته بينها وبين نفسها « خلف » خلف ابنها الأول الذى أنجبته منذ أربعـين سنة ومات بعد سبعة شهور من ولادته ، هكذا فجأة بدون مرض أو سبب ..

من حديث سوسو الحلوانى الى شفيق أفندى

.. سأل شفيق أفندى بالحاج ، هل رأيت الغـريب عنـد الهاويس بعد معركة كوبرى الزراير ؟؟

قال انه لا ينسى أبدا ، ولو أن الله مد فى أجل البمبوطى كفته والباشجاويش سعد لأكدا ما يقوله الآن ، لأنه وصل الى الهاويس

معهما ، قال أن الجو بدا مقلوبا وكأن جزءا من طاقة جهنم فتح على الناس ، أما الهواء فثقيل كدخان الجير ، ما لفت نظره اليه ، اتخاذه أوضاعا تعرضه لأقصى الخطر ، حتى قال البعض ان الغريب القادم محجب . مثل هذا لا ينسى أبدا ..

ان شفيق أفندى يرغب فى توجيه المزيد من الأسئلة ، لكن الحلوانى سوسو يحملق الى الأرض ، نسى تماما وجود الافندى القادم من مصر ، سهم فجأة كنزول ليل مباغت ، لم يستطع شفيق أفندى أن يخدش صمته ، ورصد دمعات تسلل على مهل من عينى الحلوانى سوسو ..

ملحوظات أخيرة ..

اجتمع الأستاذ الجواهرى فى مساء اليوم السادس بعضوى اللجنة ، قدم طايل أفندى تقريرا بدا أثناء تلاوته منفعلا ، قال فيه ان باشجاويش شرطة من قسم الاربعين وامرأة عجوزا من الجناين لجأت الى المدينة عندما هاجمها اليهود وقتلوا أولادها واثنين من أحفادها ، وبائع قلل متجول . وعطارا من حى زرب ، وصياد سمك يمتلك قاربا ، أكدوا انهم شاهدوا الغريب قبل نهاية الحصار بأيام . وأكد قارىء قرآن عجوز انتدبته وزارة الأوقاف من المنوفية الى مسجد الشهداء ليقرأ القرآن قبل الحرب بأسبوع واحد انه التقى كثيرا بهذا الشاب ، لا يمكن أن يخطىء لأن الذين احتجزتهم الظروف تقاربوا من بعضهم ليعرف كل منهم حكاية صاحبه ، أجمع الكثيرون أن الغريب بدأ كثير الحركة لا يهدأ ، لا ينام فى مكان واحد ، بل نادرا ما رآه البعض نائما ، كل من رآه شاهده مستيقظا يؤدى عملا ، فى الليل يقف خلال نوبات الحراسة عند أطراف المدينة ذهب الى بور توفيق أكثر من مرة . حفر الخنادق . نقل العديد من العوائق كالعربات المدمرة والحجارة الثقيلة ليسد بها الطريق . شوهد يحفر مع بعض الشبان آبارا

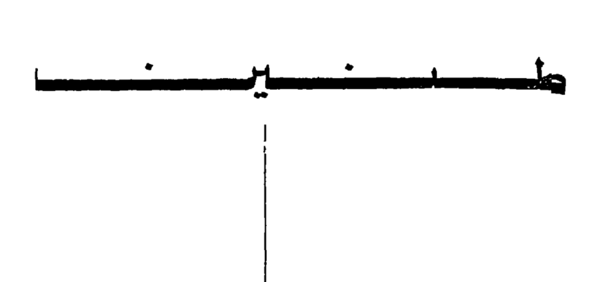
للمياه قرب سيدى الغريب ، سمع يؤذن للصلاة مرة . كما أنشد بعض المواويل فى سهرة أقيمت خلال الحصار . تبرع بدمه مرات لأن المدينة عانت نقصا فى الدم . يقال انه تسلل مرات الى قلب خطوط العدو ، استطلع الأخبار . . أثناء توغله رسم خرائط لمواقع العدو ومرابض مدرعاته وأنواع مدفعياته . وأرسلت هذه الخرائط الى مصر بطرق خفيه ، وأكد عدد من الأهالى أنه خرج فى قارب ليصيد السمك برغم علمه بوجود الألغام فى الخليج . لكنه دائما يجىء الى المرسى الراكد . يسأل « فين المراكب » يحرك المياه بضربات المجداف ، وأقسمت امرأة من حى الأربعين أن الغريب القادم من مصر جاءها عندما أتاها المخاض فى الليل وصرخت من الألم حتى لفظت الشهادة لبعد الناس عنها ورحيل زوجها وشقيقتها قبل الحصار وبقائها وحيدة . بيديه أنهى ولادتها العسيرة . تلقى الطفل عند خروجه ، وقال صاحب مقهى تهدم فى الحرب أن الغريب أصلح عربة لورى معطلة وقادها عبر شوارع البلد مرتين .

أصغى الأستاذ الجواهرى بهدوء . لم يفته ملاحظة الجدية المفاجئة التى نزلت على طايل أفندى حتى صار يخرج من الفندق فى السابعة صباحا يستقصى ويلتقى ويجرى المقابلات ليعود فى المساء . حتى انه جمع معلومات دقيقة عن ملامح الغريب وطريقة مشيه ؛ وسجلا بالأسماء التى أطلقت عليه من الأهالى . لم يبد الأستاذ الجواهرى انفعالا . قال انه أمر مشرف للمؤسسة أن تعلن استشهاد أحد أبنائها فى السويس . لكنا لم نعثر على أثر ، لم نجد له قبرا ولم يجمع اثنان على رواية واحدة . ثم ما هو موقف العهدة سيارة النقل والبضاعة ، وباعتباره موظفا قضى عمرا بأكمله فى خدمة الحكومة فما يهمه أولا الاطمئنان على أموال المؤسسة .

يصغى شفيق أفندى صامتا . صباح اليوم راوده يقين أن الغريب يطوف بالطرف الآخر من المدينة . أسرع الخطى . لم يلحقه وبقى وحيدا فى هدوء شتوى يخيم فوق أنقاض البيوت .

ورائحة البحر فى الخليج القريب . حتما ستجىء لحظة يلتقى فيها بالغريب لا يدرى متى ، لكنه سيحكى له طويلا ، انه على وشك اتخاذ قرار بينه وبين نفسه . أن يبقى وقتا اضافيا ولن يبالى بالأستاذ الجواهرى . طايل أفندى يقول انه طلب زيارة الأسطى عبد الرحمن مضى اليه مع عدد من شبان المدينة . قرأوا عليه الفاتحة . ماذا تبقى اذن لتقتنع المؤسسة بموته وتمنحه حقوقه ، يهز الأستاذ الجواهرى راسه . يكرر بهدوء ان هذا مشرف للمؤسسة ، لكن ما الذى يثبته .. أين الأدلة ؟؟

١٩٧٤





.. خبطة محكمة ، بعدها هوت ، ضاعت قدرتها على الطنين، أول حصيلة اليوم ، خطأ فوق الحديقة الصغيرة المحيطة بالبيت ، استطالت حشائشها ، غطت الجدران ، لحية كثيفة خضراء لم تهذب ، ضجة محرك سيارة ، يصغى ، يهم قليلا ناحية الباب ، يتزايد صوت المحرك ، اذ تمرق العربة أمام البيت ، يضع حدا لتساؤله ، أهى عربة جيب . أم نقل ؟؟ كثيرا ما يبدأ رهانا مع نفسه ، أراهن أنها عربة جيب ، لو خسرت سألف الحديقة سبع مرات ، فى الليل يغطى رأسه بطاقية الصوف . أرسلتها اليه ابنته من المانيا ... « نسجت لك يا أبى هذه الطاقية قبل دخول الشتاء ، لتدفىء رأسك فى ليالى بور سعيد الباردة ، أما الجوارب فأرجوك الا تهمل ارتداءها ، طالما تشعر ببرودة ، لن يأتيك النوم ، وأظن ... » ماذا تظن ميسرة ابنته ؟؟ صحيح عمره سبعون عاما ، لكنه أكثر نشاطا من زوجها ، فى السادسة والنصف تماما يقوم من نومه ، طوال نهاره ، يقضيه هنا فى حديقة البيت ، الأيام الأخيرة غيرت عادات قديمة ، لم يعد يخرج للتجول قرب مبنى هيئة القناة ، ينظر قبابه البيضاء وصوارى اللاسلكى والبحارة الأغراب يتحركون فوق سفنهم الراسية والقوارب الصغيرة

وجنود الجمرك وراكبى الدراجات من عمال الترسانة البحرية فوق معدية بور فؤاد يرقب ترقرق أمواج البحر ، بيوت المدينة مستكينة وادعة ، تنضح رطوبة ، تنوء بهجر أصحابها ، لا طعام يطهى فى طوابقها لا صيحات أطفال ، تستقيم الشوارع ، فراغها حاد كأسوار سجن ، لم يعد يتجول فيها ، يصغى وشيش سعف النخيل المرشوق فى شوارع الحى الافرنجى ، يستند الى الفراغ ، طوال النهار يقضيه هنا ، فى حديقة بيته ، ممسكا منفضة من البلاستيك

زرقاء ، اداته فى تنفيذ قراره الذى اتخذه من فترة ، الآن ، يسرى طنين هادىء واثق ، يتصلب جسده فوق المقعد ، لا يصغى الى تنفس البحر النهارى ، يقشعر جلده انتظارا ، يدور بعينيه حوله ، يحكم امساك المنفضة ، يبتعد الطنين ، لن يعاود الاضطجاعة الهنيئة فوق المقعد ورحيله بعينى عقله الى ابنته على الشاطىء الآخر من البحر ، كأنها ترقبه الآن ، تبادله النجوى ، سيظل منتبها يعرف طريقها ، تدور ، تدور ، تضيق حلقات مرورها بالقرب منه ، تبتعد فجأة ، صمت المدينة يضخم الطنين ، فجأة ، ها هى فوق جلد ذراعه الأيسر ، تستند الى ساقيها الأماميتين ، تمد خرطومها ، تمارس طقوسا غامضة ، لغتها غير مفهومة ، لا يدرى كيف حطت صامته ؟؟ ربما هوجم باثنتين فى وقت واحد ، أى خطة ينفذها لصد الهجوم ؟؟ يوش البحر ، يرتد موجه ، آه .. راحت ، بلا طنين ، لن يهدأ ، لن يغفو ، طوال أيام أربعة كاملة ، لم تنجح واحدة فى ملامسة جسده ، والابتعاد حية ، لو طارت يتكدر يومه ، يبدو البحر الشاب البهيج مغارة يأوى اليها الهلاك ، أيامه الطويلة خواء مفرغة من الأخبار والأحداث وندر المفاجآت ، ترتعش أطرافه ، يهاجمه أرق لم يأته قط فى ليالى نشاط الطيران المعادى ، بأى مشاعر تتلقى ابنته نبأ هروب مصدر الطنين منه ، فشله فى ادراكه لن تسأله عما اذا كان يحرص على شرب اللبن قبل نومه أم لا ؟؟ .. دائما أراك يا أبى ، أعيش معك أول النهار عندما تصحو من نومك

ترتدى ثيابك كاملة ، تطمئن على صلابة ونظافة ياقة قميصك .
تماما كأيام ذهابك اليومى الى المستشفى ، تمد يدك تلامس ذقنى ،
تميل ، تقبلنى ، عند بلوغى المرحلة الثانوية ، أضفت عادة جديدة ،
اتجاهك الى صورة المرحومة أمى فوق الجدار ، تنحنى ، تلفظ
تحية الصباح وكلمات أجهلها ، لم أسمعها قط ، لم تبح بها ، فى
كل يوم ، عندما أعرف أن الصباح يضم بور سعيد ، أشعر بيدك
تلامس ذقنى ، أثق أنك تداعب صورتى ، ربما توجه ألفاظا دقيقة
الى ، تقبل ابنى عادل ، عادل يا أبى يتحدث الألمانية بطلاقة ،
لكننى أطمئنك ، أنا حريصة جدا على تعليمه لغة موطنه ، أما أحمد
فمشغول فى تحضير الرسالة ، استعدادا لمناقشتها فى ... « لو
أفلتت واحدة ستحزن ميسرة ، أربعة أيام طرد العشرات ، هوى
بضربات قصيرة ، محكمة ، عندما يشرع المنشة تتخلى الرعدة عن
يده لن يهدأ اليوم الا اذا وضع حدا لهذا الطنين ، خطابات ميسرة
تدفق التأثر الى كيانه ، الشىء الوحيد المنتظر من العالم البعيد ،
يوميا يتعجل مجىء ساعى البريد ، لو رآه الآن لن يتخلى عن
ترصده ، لو زاره أيضا ضابط الموقع القريب ، هادىء الملامح ،
قليل الكلمات ، يجىء يوميا ، يستند الى السور الخشبى ،
يعرف الدكتور غندر منذ شهور ، فى البداية كعادة الصحفيين ،
والزائرين الغرباء ، تساءل عن السبب الذى جعل الدكتور لا يهاجر
يوما واحد ؟؟ حتى عندما اختنقت المدينة بقلة المياه العذبة ،
حاصرها الطيران ، قطع شرايين الوصل ، خرج معه الدكتور وقت
غروب ، توقفا أمام بيت خشبى من طابقين ، يستند الى ثلاثة
أعمدة طويلة تغوص فى الحجر ، يستقر منكمشا بين عمارتين
شاهقتين يتوارى خجلا ، بابه مغلق بقفل حديدى ضخم ، طلاؤه
أخضر ، فوق درجات السلم الضيق برقت عينا قط ، أشار
الدكتور الى الطريق ، « قبل رحيلى الى أوربا لأتعلم الطب ، سهر
اقاربى هنا مع اهالى الحى ، تزوجت ابنة عمى ليلة سفرى ، اذكر

رنين أوتار السمسمية ، ورقصة البمبوطية وصياح الأحبة ، لعلعة الزغاريد ، لون الرمال الأصفر المفروش أمام البيت » .

اصغى الى وقع خطواتهما فى فراغ يلمع فيه الأسفلت ، وهواء مبلل بملوحة البحر ، طعم اليود ، قال انه يعرف بيوت المدينة بيتا بيتا ، قبل التهجير يستطيع كشف الغريب فى قلب الزحام ، عندما اغلقت البيوت بدأ يطوف فى الشوارع ، حتى فى أوقات الاشتباكات ومجىء الهلاك المحلق من الشرق ، توقف ، « هل ترى هذه العمارة ، أضخم مبنى فى بور سعيد ، انت الآن فى الحى الأفرنجى، قال انه يعلم خلوها من السكان ، فى أول ليل بعيد ، رأى ضوءا يلمع فى نافذة علوية ، نور وحيد معزول فى أقصى الطابق العاشر مصلوب كضوء فنار ، لكنه ثابت لا يدور ، أخذته حيرة ، ترى من بقى هنا ولا يعرفه ؟؟ من ؟؟ رأى باب العمارة مغلقا بلا قفل ، تراجع ، عاود النظر ، تبدو المسافة نائية ، لو رأته ميسرة الآن ستصيح غاضبة ، تحيطه بذراعيها ، أما المرحومة فحتما تراه ، ترعاه وتصون شيخوخته من خدش ، منذ رحيلها الأبدى يوقن من ملازمتها له ، تراه ولا يراها ، تدرى ما سيجرى له ولا تستطيع أخباره ، رجف بشفتيه معتذرا ، لعلها تقبل طلوعه ، لن يتراجع ، بدأ طلوع السلم ، المصعد هامد معلق بين الطابق الثانى والثالث ، وحشة البيوت الخالية ، الأبواب جهمة فيها صد ، شاخت قبل الميعاد ، جفف عرقه عند الطابق الثامن ، أخيرا ، يبدو الضوء من وراء زجاج الباب ، قال للشاب ، أنا الدكتور غندر طبيب المستشفى الأميرى سابقا والمحال على المعاش حاليا ، أنت لست من أهالى بور سعيد ، من أنت ؟؟ دخل ، فراغ مثقل برطوبة ، غرفة واحدة مضاءة ، ما تحويه سريرا حديديا صغيرا ، صحيفة فوق الجدار تدفع الجير عن ثلاثة قمصان وجاكته ، بنطلونين وبلوفر أسود ، بدا الشاب مرتبكا ، جلس الدكتور فوق السرير ، ممسكا قمة عصاه براحتى يديه ، قال الشاب انه من أهالى

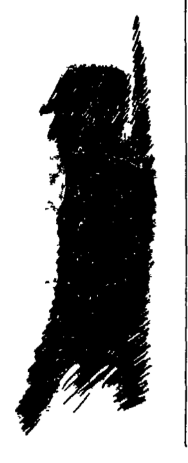
بور سعيد لكنها المرة الأولى التى يجىء اليها ، عاش عمره فى مصر درس الهندسة ، والآن يجيىء ليعمل فى السنترال ، الشقة ملك لعمه ، أوصاه بالتردد عليها ، أعجبه الموقع الشاهق من الشرفة البحرية ، أطال الدكتور سهره ، تحدث الى المهندس الشاب عن المدينة ، بساطة ورقة الحياة فيها ، لو جاء اليها قبل العدوان لأحبها الآن أكثر ، تعقب أصول الشاب ، استقصى أفراد عائلته ، مضيا الى الحى الأفرنجى ، الى حى المناخ ، هنا سكنت عائلة فلان ، وهذا بيت فلان ، وهنا كانت تسكن عائلة استشهد كل أفرادها عام ١٩٥٦ ، بدا الشاب وكأنه يتعرف الى المدينة لأول مرة ، أشار الدكتور الى حفرة قديمة ، هنا سقطت دانة مدفعية فى بداية الاشتباكات ، فتكت شظاياها بثلاثة عشر انسانا ، فى الطريق المجاور خلال الحرب العالمية الأولى ، أغارت طائرات المانية كأقفاص الفراخ ، رمت قنابل ، أحدثت كل منها فجوة فى حجر طبق كبير ، توقفا أمام حلوانى جيانولا ، بدا الدكتور ساهما ، تبحر نظراته فوق بحر من الحزن بلا مراسى ، قال .. هنا فى الأماسى جلست مع أم ابنتى ، بالضبط هذا موقعنا المفضل ، نتأمل وجوه الغرباء فى الصيف ، فى الشتاء نجلس بالداخل ، صحبنا دائما مهندس يونانى اسمه ديمترى ، فى أوقات فراغه يصنع نماذج دقيقة لبواخر بهيجة الألوان ، يقسم لو وضعها فى البحر لعامت ، عرفت مقصدها الى بلاده رأسا ، بدا الدكتور خفيفا نشطا ، أمسك كوبا زجاجيا ... بالتأكيد شربت أم ابنتى من احدى هذه الأكواب ، يقطب حاجبيه ، كل شبر هنا اقتطع من عمره مقدارا، يقترب الطنين ، يخلق موجات فى أذنيه ، هذا طنين ساخر لم يعرفه من قبل ، لا يرى مصدره ، يهزأ بقراره الا تفلت واحدة قط . الا يدع الطنين يمرح فى خواء المدينة ، ينظر حوله ، يقشعر جلده ، ابدا ، لن تحط فوق أى جزء من ثيابه حتى ، يتزايد الطنين فجأة ، خط حاد مختصر ، خروج دانة من فوهة مدفع ، يضرب

الفراغ بالمنشـــة ، ابدا لم تهـــو ، بالأمس فتـــك بأربع عشـــرة
واحدة ، أما هذه فتبدو وكأنها تعد بالثأر لكل ضحايا جنســـــها
السابقين ، يخفى الصوت الحاد اللزج ، لن يغادر الحـــديقة ،
سيبقى كما تعود دائما خلال جلوسه النهارى ، سيرصد حركتها،
يجيئه الآن الطنين رفيعا ، يعرف أنها تدور فى خط دائرى واسع،
ستقطعه وتتجه رأسا اليه ، آه ، ضرب ساقه بالمنشة ضربة قوية
امالت جسمه الى أمام ، نظر ، أبدا .. كتلة ســـوداء صـــغيرة ،
الطنين مستمر ، أى نهار هذا ؟؟ لم يعد يسمع مروق العربات ،
وحشة المدينة لم تدفع بوخز الى قلبه كهـــذا الطنين ، خطابات
تيسير الرقيقة ، برقيتها اليه عشية عيد ميلاده ، قبل ميعـــاده
بيومين ، ذهب الى ناظر محطة الأتوبيس ، رحب به ، طلب منه
تكليف احد سائقيه بشراء تورته فاخرة من دميـــاط ، ليلة عيـــد
ميلاده ، حمل التورتة الى البيت ، خفيف الخطى ، لا ينقصـــه
الا انتظار زوجته ومستر ديمترى وابنتاه ، رص الشـــموع ، فى
المساء ارتدى الحلة السوداء والبابيون ، نزل الى صالة البيت ،
اضاء مصابيح النجفة كلها ، أصغى الى ايقاع السكون الموحش ،
وقف طويلا أمام الصورة المطلة عليه من عالم آخر ، بأصابعه المهتزة
عود كبريت رأسه حمراء اللون ، اضاء الشموع ، ضغط زر النور
ووقف ممسكا عصاه ، تزايد وشيش البحر القريب ومروق الرياح
انحنى بهدوء ، استجمع قواه المشتتة عبر سنين بعيدة ، نفخ بقوة ،
اطفأها كلها ، قبل صورة امرأته ، وتيسير وحفيده عادل ، علـى
مهل جلس فى المقعد الكبير ، ينظر الى الشموع المطفأة فوق التورتة
الكبيرة ، عندما جاء ضابط الموقع الشاب فى صباح اليوم التالى ،
رجاه أن يحملها الى رجاله ، تورتة كاملة لم تخدش ، السكر فى
دمه يمنعه من تذوقها ، أمراض العمر كلها وأوجاعه تفاجئه الآن ،
تدهمه كموجة عاتية ، تهدم صفا من الأبنية ، يعود الطنين قويا
حادا ، آه .. تمرق بجوار أذنه ، يضرب الفراغ بالمنشة ، يسقط

فوق ركبته ، تنبىء بداية اليوم بمصائب وآلام ، اتسخ بنطلونه ؛ تلفت حوله ، لم يره أحد ، الاهتمام بهيئته لن يشغله عن متابعة الجسم المحلق اللعين ، فى البداية لاح الأمر تحديا طريفا يقطع به الوقت ، يغالب قسوة اليوم والوحشة ، الآن .. لن يأوى الى البيت ، سيطارد منبع الطنين ، بالضبط .. بالضبط .. هاهى .. مرت أمام عينيه ، لا تجرؤ على الاستقرار لحظة فوق جسده ، أو ثيابه ، باغتته رعشة قوية ، تصور لحظة أنها استقرت فوق زجاج النظارة ، تنهى طيرانها فى خط مستقيم ، تدور متمهلة ، لا يلمح التفاصيل ، لا تختلف ملامحها العامة عن اية واحدة فتك بها ، يتقدم خطوات ، يتتبعها ، يبدو مسارها واضحا ، ببطء ، تنزل ، تستقر فوق السور الحديدى القريب من الكرسى ، .. ثانية واحدة ، جزء من ثانية ويستعيد صفاء جلسته ، يستعد لاستقبال الضابط الشاب عندما يأتيه باسما بعد الغداء ، يخرجان الى طرقات المدينة العذبة كأبيات فى قصيدة حزينة ، بينما يجىء الغبار المسائى من ناحية البحر ، ضربة واحدة ويروق اليوم كله ، بالضبط .. تمد خرطومها اللعين ، من أى عالم موبوء جئت ؟؟ فى صمت ، على مهل ، يرفع ذراعه ممسكا بالمنفضة الى أعلى ... »

١٩٧٢

ريـــــح الـجـــــبــــــل



.. ها هى أيام ينــاير الأخـــيرة تولى ، ولا يزال فوق صخور عتاقة . بين مدقاته الضيقـــة ، المتعرجـة ، التى تشرف فى بعض الأحيان على هاوية غير متوقعة ، بين كهوف عرف عمق بعضها ، لم يتوغل فى العديد منها لامتدادها مسافات بعيدة ، يقل الهواء داخلها فيشـقل فراغهـا عـلى صـــدره ، يجعل خطوه مضـطربا ، كما تجعل الروائح الثقيلة للهواء كثافة ، روائح بقايا الوطاويط ، الفئران الجبلية ، الثعابين ، وحيوانات صغيرة ، دقيقة الحجم ، تندفع عبر تلك الأنفاق الطبيعية المجهولة ، قد يجد نفسه بداخلهـــا عرضـة للحصار المفاجىء ، المباغت ، الذى لا مهرب منه ولا فكاك ، قد تقوم قنبلة دخان بالعمل كله ، أو كومة أعشاب يحرقونهـــا عند الفوهة ليختنق ، بعض هذه الكهوف يمتد عدة كيلومترات ، تحفل بتيارات هوائية مجهولة المصدر داخلها ، بعضها ساخن والآخر بارد ، يقولون ان هذه الممرات تتفرع وقد تؤدى الى عدة منافذ للكهف الواحـد ، بعضها قرب القمة والآخر يلامس السفح ، يؤجل محاولة الكشف ، فى أصعب أيامه لم يأو الى أى كهف حتى ولو بدا كغرفة مهدتهــــا الطبيعة ، لم يضع أى جزء من عتاده الضئيل داخل أحـدها لأنها هدف مستمر للتفتيش ، تثير الشك أكثر من حفرة على جانب مدق

أو تحت صخرة معلقة الى جرف ، فى الليل يتحول الجبل الى كهف كبير بلا جدران ، خاصة عندما يأفل القمر وينـأى ، تندمج أطراف الصخور . تضيع كل التفاصيل ، تتردد مئـات الأصوات مجهولة المصدر ، عواء ، صيحات ، حيوانات لا يدرى الى أى جنس تنتمى ؟ ازيز حشرات دقيقـة ، مضـيئة ، لا تنشط الا فى ليـالى السواد الكامل .

سـيقول انه لا شىء يبعث الرهبـة برغم ذلك الا نزول هـذا السكون الأجوف ، الكلى ، فى فترة ما قبل المغيب بدءا من شحوب العصر ، يبدو الجبل مقبرة للنهار ، يتسلل سكون موجع من المسام الى الدم ، ينكفىء بالذكريات الى الأيام الموليـة ، يوحى بضجيج المدن البعيدة ، بايقاع الحياة الآمنة ، حيث يستيقظ الانسـان بعد اغفاءة العصر ، يتناول شايا ساخنا ، يستحم ، يرتدى ملابسـه متمهلا قد يصغى الى أغنية منبعثة من الراديو ، يحيى أمه أو امرأته أو أخوته أو يسأل أطفاله عما يحتاجون اليه ، ما يرغبون فى أن يعود اليهم به ، على السـلم تصل أصوات البيت ، خادمـة تقول . . يا ستى ، صوت طبيخ فوق موقد ، فى الشارع يحيى الجيران ، فى المقهى يلتقى بالأصـدقاء .

سـيقول لزملائه أنه احتمل حتى الآن أربعـة وتسعين يوما ولا يدرى كم سيمر عليه اذا طال الصمت ؟ سيقول انه رأى الثلج فى الأعـالى، بخبرته هنـا حسم رهانا دار يوما بين سليمان الحلبى والبرق فى معسكر التدريب . تسـاءل سليمان الحلبى ، هل ينزل الثلج فوق عتاقة ؟ قال البرق ، طبعا لا . . وهل تنزل ثلوج فى مصر؟ هنا أكد سليمان نزول الثلوج فى الأعالى ، لو دقق الواقف عند أطراف السويس سيرى الثلج ، نفى البرق ، لوح سليمان الحلبى بجنيـه كامل ، قال : هذا رهان بينى وبينك ، سنتأكد عندما نطلع فى دورية الى عتاقة وهذا منى مقابل عشرة قروش منك ، لم يأت أحدهما الى

عتاقة ، سيقول لهما أنه رأى تجمد المياه فى الشقوق ، لا ينزل الثلج من السماء ، لكنه يوجد اذ تنخفض درجة الحرارة انخفاضا مريعا بعد نزول المطر .

سيقول أنه لم ينم فى أيامه الأولى بالجبل ، أربعة أيام ، يذكرها كأنها يوم واحد ، متصل ، فى البداية احتاج الى تأكيد كل معلوماته عن الجبل . الى استطلاع الموقف ، استكشاف المكان ، أصلح أماكن الايواء بالجبل طبقا للظروف الطارئة ، انه خبير بعتاقة ، لكن منذ صعوده اليه والأرض تكتسب قيمتها ليس لمناعتها الطبيعية فقط ، انما ببعدها عن العدو أولا ، وصلاحيتها للعمل بالنسبة اليه وليس بالنسبة لأى انسان آخر ، قرر أن يبحث عن عدة أماكن تصلح لنومه آخر يخبىء فيه مئونته القليلة ، مكان يدفن فيه نفاياته ، آخر يدفن فيه البطاريات الاحتياطية للجهاز ، ومكان يمكن منه أن يدير الجهاز يرسل اشاراته ، قرر استطلاع المدقات الصعبة التى لا تصلح لمشى العدو ، الممرات الجبلية التى تتخلل الصخور ولا تسمح للشخص الواحد الا بالمرور زحفا أو بالجنب ، الأماكن الصالحة لهبوط الهيلوكبتر وغير الصالحة ، عندما نزل الليل بسرعة أجل جولته الى فجر اليوم التالى .

سيقول ان الرياح بدت غريبة ، هبوبها على ارتفاعات مختلفة وسرعات متعددة ، اصطدامها بالمنحنيات واطراف الصخور والحجارة الضخمة المعلقة التى انفصلت عن الجبل فى زلازل سحيقة ، دورانها بالحفر ، ارتدادها المفاجىء ونفاذها الى أعماق الكهوف والفتحات وخروجها من أماكن غير مرئية ، تحدث أصواتا متداخلة لم يعرف مثيلا لها فى جميع المناطق التى ارتادها فى سيناء أثناء عمله خلف الخطوط ، هنا لا يستطيع أكثر البشر خبرة معرفة اتجاه الريح أو منابعها ، من كل شبر تجىء ، الى كل مكان فى العالم تمضى ، تسافر ، تعود ، تتنوع ، صفير متصل كاشارات جهاز

اللاسلكى العاجلة ، سرب من طائرات مقاتلة يهوى من السماء مـرة واحدة ، أبواق نحاسية ، دفوف ، عويل نسـاء حزانى ، جنـازة كونية ، أثناء التدريب حذرهم القلعاوى ، قال ان وقتا ينبغى أن يمضى حتى يتبين الحقيقى من الزائف ، وعندما تستفز غريزة القتال الى أقصى حد يختصر هـذا الوقت الى لحظـات ، اقترح القلعاوى عليهم أن يتخذ كل منهم اسما لا يعرفه الا قلة قليلة ، يبدأ به أى نداء يوجه اليه أو يرسله ، فى الليل ابتهج زملاؤه قالوا ان كل الناس لا يختارون أسماءهم ، يشب كل انسان ليجد اسمه مقدرا قبل أن يعرف ، لا رأى له فيـه ، انما هم ستتاح لهم الفرصـة من جديد .

سيقول لهم عندما يخلو اليهم ويحكى أن كل شىء خلف الخطوط يبدو كأنه يسمع أو يرى لأول مرة ، حتى لو طرق الانسـان نفس الدرب عشرات المرات ، المفاجأة محتملة ، متوقعة ، دائما ، كامنة فى الجهات الأربع الأصلية ، المفاجأة تلغى الشعور بالعادة ، من يدرى منذ ساعة خلا الطريق ، ربما جاء العدو ونصب كمينا ! ، لكن هنا فوق عتاقة يختلف الأمر ، لكل ليلة جبلية ملامحهـا ، لكل ساعة أصواتها ، يتغير الطقس قبل قدرة أى جهاز على التنبؤ ، خلال النهار يبدو الدفء مستقرا ، يكفى أن تجىء سحابة لتحجب قرص الشمس الذى يبدو من وديان عتاقة أكثر بعدا ، على الفور تتخـذ البرودة طريقها الى عظامه ، يزيل غياب الشمس حاجزا غير مرئى ، تطبق الظـلال ذات الملمس على صدره كانهيار خيمة أو أطبـاق البحر عليه وغوصه بلا توقف ، تضاعف الظلال بعد القمم ، تبـدو أطراف الجبل مرسومة على صفحة السـماء غير المستوية ، يشيخ النهار فجأة ، تدركه وحشة الساعات الأخيرة من النهـار ، تدركه هذه الوحدة التى تباغته مع سكون النهـار الأخير ، عندما تشق جدران الجبل سـدودا فى وجـه الفراغ ، يدرك بغريزته حركة

الحيوانات والزواحف غير المرئية ، تململها في مراقدها ، استعدادها للخروج الى عالمها الليلى ، يتساءل عما سيأتى به الظلام ؟ ، هناك خلف الخطوط كل ما يحيط به عدو ، هنا فوق عتاقة يمكنه رؤية السويس ، اذا دقق النظر يرصد الدخان المنبعث من بعض المداخن ، حركة العربات في طرقاتها ، العمارة التى اتخذتها الوحدة مقرا لفترة قضى بها الأيام الحلوة مع الرجال ، أدهم الشرقاوى ، سيف بن ذى يزن ، الفتى مهران ، والبرق ، والصاعقة ، موج البحر ، أحمس الأول ، البراق ، خلال حصار العدو للمدينة لم يعمق شعوره بأن الأرض محتلة ، بعكس المسافات القصية التى يقطعها داخل سيناء التى يتواجد فيها العدو منذ سنوات ، في عتاقة ، أعتبر وجودهم عارضا ، رصد ضيقهم ، ان وجود السويس القريب منه يضاعف وحدته الجبلية بقدر ما يؤنسه ، كثيرا ما قطع دربا وعرا ليصل الى الحافة الجنوبية المطلة على المدينة خلال الحصار ، في الليل رأى قبضات ضوء تتوهج لثوان فوقها ، بدا بعضها كبقايا شمعة صغيرة داخل فانوس غير مرئى ، من النيران المنبعثة حول فوهات المدافع أمكنه تحديد مواقعها استطاع تمييز لهب المدفع من طلقة الفليرز المضيئة ، تختلف عن مشاعل الطائرات التى تبدو محاذية له أثناء اشتعالها فوق المدينة ، تراقص لهبها على الصخور ، ضوء باهت استوعبه عتاقة ، محاولة فاشلة لفقأ عين الليل ، أوشك على نسيان نفسه مرات أثناء تأمله المدينة ، عندما سدد المنظار المقرب مقتحما الفراغ النهارى بعينيه تحولت المكعبات الصغيرة الى بيوت واضحة الملامح ، ميز مدرجات الاستاد ، مبنى شركة شل ، عندما وجه المنظار صوب الأرض القريبة من الخليج رأى أنابيب مصانع الزيتية الملتوية المتفحمة فوق الأرض ، صهاريج البترول المحاطة بساتر دائرى من الطوب الأحمر ، أشعلها العدو في اليوم التالى لاغراق المدمرة « ايلات » ، بكى عمال المصنع ، تدافع رجال الأطفاء ، وشوهد رجل عجوز لم ير بعد ذلك

ابدا . عرفه العمال الموظفون بائعا للسجائر والصحف منذ انشاء المصنع لم يفارق موضعه حتى بعد التهجير ، قيل انه حزن واحترق مع المصنع ، سواتر الطوب لم تتحمل الحرارة ، التهبت ، تطاير الطوب الساخن المشتعل كالشظايا فى كل اتجاه ، من خلال المنظار لمح عربة فوق الطريق الممتد بين السويس وبور توفيق ، عربة جيب ذات أربعة أبواب ، تخصص عادة للقادة . من اهتزازاتها يشعر بالحفر التى تمر فوقها ، توارت خلف أحد البيوت . ظهرت .. اختفت ، ربما تمر بالشارع حيث الاستديو الذى عمل به سنوات، لابد أن الغبار غطى الفاترينة الزجاجية التى تتصدر واجهة العمارة وتزدحم بعشرات الصور ، ربما انهار البيت ، لا يمكنه رؤيته من الجبل ، على بعد أمتار من الاستديو مطعم أبو أمل المتخصص فى السمك المشوى ، عندما تنتاب أحد زملائه نوبة تحد أو كرم يصيح .. والله أدعوكم للغذاء عند أبو أمل ، أغلق بعد التهجير ، سمع أنه فتح فى طنطا لكن لم يقبل عليه أحد ، يذكر واجهته عندما رآه مغلقا فى آخر مرة رأى السويس قبل ذهابه الى سيناء ، قائمة الأسعار بهتت ألوانها ، تطل ملتصقة بالزجاج ، زهور صناعية مطلة من اناء خزفى فوق منضدة مهجورة . ما أثار حزنه طوال تردده على السويس أو اقامته بها رؤية دكان مغلق يحمل اسم صاحبه أو ثلاجة زجاجات كوكا كولا تستقر بين الأنقاض كأنها وضعت بعناية ، أو لافتة طبيب تطل من بين الأنقاض أو زجاجة دواء بها بقايا لم تستعمل ، نسيها أصحابها أثناء رحيلهم وبطريقة ما طفت فوق الأنقاض ، مضت عربة الجيب ولم يرها ، ربما عبرت أمام البرق ، أو ادهم الشرقاوى ، ربما ركبها أحدهم . ترى .. كم بقى منهم ؟ الى أين رحل سليمان الحلبى ؟ أى مهمة أوكلت اليه ، وهل عاد سالما ؟ . أين مضى البراق ؟ ماذا فعل الفتى مهران يوم الرابع والعشرين من أكتوبر عندما هاجموا المدينة ، قاتل من ؟ بمن التحم ؟

هل غطاه سيف بن ذى يزن ؟ عمـــلا دائما متلازمين ، تجاوروا فوق دكة واحدة بالمدرسة . وعندما عينا التحقا بمجلس المدينـــة ، فى الدوريات القتاليـــة التى خرجوا فيهـــا ، ينضم الفتى مهران الى مجموعة الاقتحـــام دائمـــا ، ويبقى سيف بن ذى يزن فى مجموعة الاســـــناد ، ترى على من انقض الصاعقة ؟ من مضى ؟ من جرح ؟ المدينة فى متناول نظره ، يمد يديه فيحضنها كلهـــا ، يجهل ايامهم التى عاشوها بدونه . بعـد عملية عبور الشط التى تمت منذ أربع سنوات وقام بها أعضـاء الوحدة القـدامى . لم يمض على تطوعه وقتئذ ســوى أربعة أشهر ، انتظرهم فى مركز التجمع فوق الضفة الغربية . فى الفجر بدت ملامح سليمان الحلبى قاسية . كأنه سافر أياما طويلة بلا راحة . قال بايجاز كالأوامر ..

« صرنا سبعة .... » .

ضاعت كل ألفاظ الترحيب والحماس التى توقع أن يفوه بهـا .. قال سليمان الحلبى ..

« طومان باى » .

قال انهم عادوا بجثمانه ، هل يتطلع سليمان الآن الى أحدهم ، يقول .. « صرنا .... » . يسكت ثم يقول بأسى موجـــع « ريح الجبل » ، لكن أين جثمانه ؟ ان مثواه غير معروف بالنسبة اليهم ، يود لو اتصل بهم ، يطمئنهم ، أثناء الحصار ود لو حقق اتصالا بهم . لم يدر كيف . تملكته رغبة أن يعرفوا وجوده فوق عتاقة ، كلمـا تطلعوا الى الجبل الذى يسد الأفق ، ويضع حـدا للفراغ الجنوبى حول المدينة ، يود لو عرفوا الآن انه هنا ، انه باق حتى الآن بعـد انسحاب العدو من الجبل ،انه لم يفارق الصخور . انه يفتح الجهاز بين الحين والحين ليزعق ..

« أنا ريح الجبل ... هل تسمعنى ؟ » .

لا يدرى كيف سيبدأ حديثـــه عندما يلتقى بهم ؟ سيبحث عن الوجوه التى عرف معها الخطر ، ربما جهلوا شكله ، يتحسس لحيته التى طالت ، تعقدت ، أحاطت بوجهه ، منذ حين لم ينظر فى المرآة ، ظلال الجبل تجعل المياه معتمة ، المقادير المتجمعة منهـــا لا تسمح بانعكاس وجهه ، انه لم يغتسل بصابون ، فى الشتاء لا أثر للغبـــار فوق عتاقة ، ربما تغير لون جلده ، ربما تغيرت ملامحــــه . لكثرة ما تعاقب عليـــه من انفعـــالات . وتوقع عشرات المواقف ، لطول ما صفعته الرياح الملحة ، الدائمة ، ربما جهـــلوا شـكله ، تدركهم حـــيرة ..

« أنا ريح الجبل ... هل تسمعنى ؟ » .

يرجىء تخيله للقائه بهم لعجزه عن نصور ما سيحدث ، سيحكى لهم عن أيامه .. ، لا .. سيطلب كوبا من الشاى الساخن . منـــذ أربعة وتسعين يوما لم يذق طعاما له قوام ، لم يقطع رغيفـــا ، ولم يشعر بمرقد دافىء ، ســـيبدو الكوب الساخن غريبـــا بين يديه ، سيتحسسـه ، يقربه من فمه ثم يعيده ، نسى ملمس الزجاج عنـــد الشفتين ، دخول المشروب الحار الى الفم ثم الى المعدة ، نسى متعة الطعام مع الآخرين ، عندما يأكل الانسان بمفرده يصبح الطعـــام متشابها ، لا يثير شهية ، لا يلحظ الفرق بين طعم وآخر ، عنـــدما تتكرر الأيام ولا يتحدث وقت الطعام الى أحمس الأول ، الى الصعيد الأعلى الذى يهوى قص الحكايات والنوادر وقت الغداء أو العشاء ، الى أدهم الشرقاوى بطريقته الوثيرة فى المضغ ومشـــاكله مع الفتى مهران اذا أكلا من طبق واحـــد . الفتى مهران يلتهم الأكل بسرعة كواجب ثقيل فرض عليه ، سيقول انه ذاق جميع أنواع الحشائش التى تنمـــو فى الجبل ، القصير والطويل ، النحيل والغليـــظ الذى يفرز مادة تشبه اللبن ، افتقد الاحســـاس بالمذاق بعد أسابيع من تكرار أكله لها ، سيتطلعون اليه ، سيسأله أحمس الأول عن بداية

الظروف فوق عتاقة . سيقول انه كلف بمهمة خلف الخطوط ، لكن لكم ستبدو أصوات الآخرين غريبة فى أذنيه ؟ منذ أربعة وتسعين يوما لم يحاور انسانا ، لم يصغ اليه آخر يجلس فى مواجهته ، لم يسأله مخلوق ليجيب ، لم يسمع الا أصوات الراديو ، أصواتا مجهولة المنبع تتحاور عبر الجهاز فى الثوانى القليلة التى يفتحه فيها ليرسل برقية أو يبلغ رسالة ، أثناء تواجد العدو واقترابه من مواقعه أصغى الى أحاديث ليلية بالعبرية أمكنه التقاطها فى لحظات هبوب الرياح باتجاهه ، لكنها أصوات عدو ، لا يمكن أن يحاورها ، يتلقاها فقط ، يدون ما يدركه منها فى ذاكرته ، قديما ألح عليه تساؤل ، هل يمكن للانسان أن يتحدث ويستمع الى صوته فى نفس الوقت ؟ ولماذا يبدو الصوت غريبا فى أذنى صاحبه اذا استمع اليه مسجلا ؟ . بعد انسحاب العدو فوجىء بنفسه يتحدث بصوت مرتفع ، وبدا ذلك غريبا فى صمت الجبال الأزلى الدائم ، تعيد اليه الصخور كل ما يلفظه محورا ، غريبا ، ثم صمت عندما أدرك احتمال وجود أجهزة ما تركها العدو ، هل استمع الى نفسه ؟ لا يدرى ، سيحرص على قص كل التفاصيل ، أى متعة سيلقاها فى تحريك شفتيه ، والتعبير عما يقوله بيديه ، واشارات أصابعه ، سيتحدث هادئا ، واثقا ، كل من سيصغون أصدقاء ، سيقول انه كلف بمهمة خلف الخطوط فى اليوم الثانى للحرب ، لم يعمل معه دليل من بدو سيناء. يعرفون أنه يحفظ الدروب والمسالك ، لو أغلق عينيه يستطيع رؤية الصخور عند الكيلو ٦٠ على الطريق الأوسط ، يرى المنطقة الواقعة جنوب سدر بكل ما تحويه من صخور ذات أشكال آدمية : كأنهم رجال تاهوا فى الصحراء ثم وقفوا يسددون البصر فى اتجاه واحد ، لم يستطع النوم فى هذه المنطقة ، قضى ليلته الوحيدة بها مستيقظا ، فى كل ثانية يحمل الليل نذرا مجهولة ، تطلع الى السماء ورأى السحب تمر أمام القمر ، خيل اليه أن الحياة دبت فى الحجارة . يعرف زملاؤه أن المقاتل خلف الخطوط لا ينتظر معونة من

احد ، يصبح المنفذ والمخطط وصاحب القرار ، تنأى الصداقات ، وينعـدم العون المباشر ، يشده الى دنياه ، الى أصحابه ، الى ما انقضى من عمره ، الى ما هو مقبل ، ذلك النداء الموجز الذى يأتيه وسط البرامج الاذاعية فى لحظة معينة . تدب الحرارة الهادئة فى عروقه اذ يصغى الى صوت المذيع الهادىء ..

من الوادى الى ريح الجبل ..

أحيانا يبتسم ، كأنه يجاوب هذا المذيع الذى يجلس فى استديو مغلق ، يتلو كلمات لا يدرى الى من توجه ، وماذا تعنى ؟ . لا يدرى ما أحدثه من أثر فى روحه خاصة اذ ينهى الرسالة قائلا .. الله معك .. فى ساعة معينة يستطلع كل شبر يحيطه ، حتى ظلال السحب وزحفها فوق الرمال ، وآثار الحشرات والثعابين ، ربما أخفت فيما بينما آثارا آدمية ، يتجنب الطرق المرصوفة ، يتأكد خلو السماء من الهيلوكبتر أشد ما يحذره خلف الخطوط .

من ريح الجبل الى الوادى .. هل تسمعنى ؟

عندما كان يجيئه الصوت ، عندما كان الرد يأتى فورا ، يدركه حماس ، كأنه يمر بكل البيوت والطرقات والأهل والمدن التى تعبرها تلك الاشارات غير المرئية ، كلمة واحدة فقط .

نعم ..

ويبدأ ارساله ، يطمئن الى اصغاء آذان من يعرفهم ، تردد صوته هناك ، آلة تسجل ، أقلام تكتب ، رموز تفك ، عندما أنهى مهمته خلف الخطوط عبر خليج السويس فى الموضع المحدد له تماما . لأمر ما ، ربما العادة ، ابتعد عن الطرق الرئيسية ، ربما لشعور خفى يكتسبه المقاتل خاصة رجل الاستطلاع ، فضل أن يطرق دربا مهجورا لينزل منه الى السويس ، انتقل وثبا ، أوشك أحيانا أن يحبو حتى لا يتيح لمراقب بالمنظار أو أجهزة الرؤية

رصده . فى هذا الوقت لم يحمل بطاقة أو علامة . هكذا من يذهب الى خلف خطوط ، ربما تعرض لمضايقة لو لمحه أحـــد الجنود من زملائه ، فى تلك اللحظات تخيل لقـــاءه بأصحابه داخل السويس . قفز ، جرى ، تخيل حديثهم معه فى الليـــلة الأولى . كيف نصبت المعابر ؟ كيف عاشت المدينة ؟ كم عملية قاموا بها ؟ ثم نومه فى مكانه المعتاد ، رائحة العرق ، رائحة الزيت المستخدم لتليين الســلاح ، قطع الكهنة القديمة اللازمة لتنظيف المدافع والبنادق ، الطعام المعد بسرعة ، فى ذلك اليوم ظن أنه ســيلتقى بهم بعد دقائق أو ساعات على أكثر تقدير لو أنهم تحركوا الى جهة ما ، أو نقلوا مقر اقامتهم . لكن تلك الدقائق استمرت أياما وشـهورا ولا تزال . لم يرهم حتى الآن . ولم يفتح الطريق بعد لرؤية الأحبـاب ، قبل وصوله أطراف المدينة الشمالية لمح عربة مدرعة مما يستعمله العدو ، ماذا جرى ؟ كيف وصلت الى هنا ؟ هل استولى عليها الرجال ؟ . قبل المغيب . فى نفس الميعاد . تلا المذيع بسرعة . .

« من الوادى الى ريح الجبل ، الزم الأعالى ، الهدف محاصر ، الزم الأعالى . . . » .

بعد لحظـات امتـدت أصابعه الى مفتاح الارســال ، لم يقم بالاحتياطات اللازمة ، ربما لادراكه أنه عاد من خلف الخطوط .

« من ريح الجبل الى الوادى . . علم . . هل تسمعنى ؟ » .

تساءل وقتئذ ، الى أين سيمضى ؟ أين سيبقى ؟ ما هى المهـام التى سيقوم بها ؟ كيف ؟ لم يتبق معـــه الا القليل من المؤن ، باكو بقسماط ، ربع زمزمية ماء ، ما يرتديه أفرول كاكى صيفى خفيف ، لديه بطانية واحدة يطبقها ويحملهـا فوق ظهره ، مرة أخرى حرص على التوارى عن الأنظار ، ابتعد عن طريق السويس ـ الأدبيـــة ، قطع المنطقة الرملية بسرعة ، وصل الى ســفوح عتاقة المواجهـــة

للمدينة ، يعرف كل شبر يبدأ من هنـا ، تسلق المرتفعـات التى تتدرج على مهل ، تزايدت سرعته ، لمدة ساعة كاملة لم يتوقف لحظة واحدة ، أثار ذرات رمال التصقت بالصخور ربما لم يرها أحد من قبل ، ودار حول المرتفع الجبلى الحاد الذى يشبه سـنام الجمل ، لم يتوقف الا فى منطقة بقلب الجبل ، تشبه غرفة صخرية طبيعية ، تعلو جدرانها حوله حتى لتحجب بقية الصخور ، والقمة الحقيقية المرتفعة المطلة على الوادى ، داخل هذه المنطقة جلس ، هدأ قليلا ، المدينة بعيدة عنه الآن ، يمكنه لو وصل أعلى نقطة أن يرى الأضواء بهـا ، لكن جدرانا ضخمة من الصخور عزلته وقتئـذ ، فى هذه الساعات الأولى لم يفكر كثيرا فى السويس ، ما شغله كيف سيقضى الوقت الذى لا يدرى مقداره فى عتـاقة ؟ كيف سيقضى أموره بما لديه من مؤن ضئيلة ؟ فى أيام التـدريب الأولى جاء اليهم العميـد أركان حرب عبد الله القلعاوى ، قائد المجموعة السابعة قتال ، يذكر ملامحه الهادئة ، وقفته المستقيمة ويداه تلامسان خصره ، يومهـا قال لهم « لا حدود لقدرة الانسان على التحمل ، كما أن قدرته على التكيف هائلة » لا يدرى ماذا قام به القلعاوى خلال الحرب ؟ لا يدرى أين هو الآن .. هل ... حاول طرد الأفكار السوداء ، عندما فكر فى القلعاوى خطر له دائما .. انه يحارب الآن .. سيقول انه فى الليل الجبلى الوعر يختلف تفكير الانسـان ، ربما لتحفز حواسه كلهـا واستعدادها لتلقى المفاجآت الجبلية ، ما قد يأتى به الظلام ، ربمـا التقى جنديان صديقان فى العتمة الحجرية واقتتلا بدون أن يدرك كل منهما حقيقة الآخر ، يعرف أن عتـاقة ملىء بدروب وممرات خفية لم يحط بها انسان واحد ، سيقولون له ولكنك أكثرنا معرفة بالجبل قبل صعودك اليه ، سيقول لهم انه اكتشف طرقا فى الذرى لم يتخيل وجودها أبدا ، ومدقات لا يمكن أن تظهـر فى أى صور تلتقط من الجو ، وأنفاق تؤدى الى وديان بعيدة يمر بها الانسان ولا يكاد يلحظها فكأنها ظللت كلها بنسيج عنكبوت غير مرئى كغار حراء ،

حتى أعتى مهربى المخدرات وأكثرهم استخداما للجبل يجهلون معظم أسراره ، سيسأله سليمان الحلبى عن حقيقة هذا الدرب المؤدى الى مصر ، أقاويل كثيرة تتردد عنه ، يكفى أن يكتشفه ليصبح بعد مسيرة خمس دقائق أو سبع على أكثر تقدير فى قلب مصر ، ينزل الى ضاحية المعادى ، ثم يقطع الشوارع الممهدة ، ويدور مع المنحنيات ، ويتأمل الشرفات ، والنوافذ المفتوحة ، والنوافذ المغلقة ، والضوء الناعم المنبعث من النجف خلف الستائر المسدلة والموحى بلقاءات أسرية دافئة ، وحياة مستقرة ، درب قصير يمضى عبره الى الأمسيات بين الناس ، والمشى بشكل طبيعى ، وتأمل الفتيات مع أصدقائهن فى الطرقات الجانبية ، واذ يمر أمام أبواب العمارات الضخمة تهب عليه رائحة رطوبة معتقة ، مزيج من رائحة السلالم الرخامية الممسوحة ورائحة الأخشاب القديمة ، وأنفاس أسرية ، ثم الذهاب الى بيته ، تناوله العشاء ، يقطع رغيفا ، يمضغ ، ثم ينام فوق حشية قطنية ، يضع رأسه فوق وسادة ... سيقول لسليمان الحلبى انه لم يكتشف هذا الدرب ، لم يهتد اليه ، فى ليلته الأولى بدأ قصف جوى فوق المدينة ، أصغى متلفعا بالليل والجبل ، غارة متصلة ، يعرف صوت قنابل الطائرات خاصة الألف رطل التى تفجر المياه من باطن الأرض ، فى لحظات التحامه بالعدو أو اجتيازه أقسى مراحل الخطر ، فى قلب جنون القتال الذى يمسك الانسان تماما ، يركز عنيه وحواسه ليلتقط لحظة معينة لا تفلت من وعيه ، لحظة ملامسة الخنجر للرقبة ، الوضع الملتوى للجسم الآدمى بتأثير المفاجأة والرعب ، اتساع العينين ، ابتلاع اللعاب ، يذكر جندى عدو فوجىء بهجوم الجماعة على العربة المدرعة ، راح يجرى الى الخلف والبندقية معلقة الى كتفه ، لم يفكر حتى فى اشهارها ... المفاجأة احطر ما يحويه ليل الجبل ، هذا ما يجب ان يحذره ، ستجىء لحظات يتأمل فيها على مهل ، سيقول لهم انه تساءل أول ليلة أثناء الغارة ، أين تنزل قنابل الألف رطل ؟ هل أصيب أحد

زملائه ؟ هل دمر مقر الوحدة ؟ هل القصف ضد اهداف معينـــة ام انه طائش ، اعمى ؟ تأكد من وجود العدو تحت الجبل وحول المدينة ، استمرار القصف الجوى الليلى يعنى أن العـــدو لم يقتحم البيوت والطرقات واماكن الذكريات وبيت الأسرة ، ما استبد به القلق على الرجال .. لا بد انهم فى نقطة ما من هـــذا الليل الوسيع يقومون بعمل ما ضد العدو ، أين هم ؟ للحظات خاطفة يضاء الجبل باصداء الأضواء البعيدة كأنه البرق فوق بلاد مجاورة ، للمحـــة عين تبدو اشكال الصخور ، قرب الفجر الحت عليه الرغبة فى رؤيتهم ، داخله شعور خفيف بالبهجة لمرور أول ليلة عليه ، مجىء النهـــار ، ولم يكن بعد قد عرف ما تعنيه لحظات الضوء الأولى وسكون الساعات الأخيرة من اليوم ، الساعات الممتدة أمام الليل الوحشى ، استبد به القلق عليهم عندما وصل الى قمة الجبل وتطلع باتجاه المدينة ، رأى دخانا ، قدر حجم الحرائق ، سيقول لهم انه لم يتخـــذ أصحابا فى المدرسة ، لم يتخذ صديقا حميما عنـــدما عمل فى استديو فكرى للتصوير بعد خروجه من الدراســـة اثر رحيل والده ، لم يشترك مع أبناء الحى فى مغامراتهم ، لم يعاكس بنات حى الأربعين أو درب أو الهاويس . اذا تصادف مشيه فى الطريق خلف فتاة يسرع حتى يتجاوزها لكيلا يراه أحد المعارف فيظن أنه يقتفى أثرها ، سيقول انه لم يشعر بنعمة الصداقة الا بعد التحاقه بالوحدة ، اكتشف من جديد أبنـــاء السويس الذين تطوعوا معه ، كأنه عرفهم لأول مرة مع انهم زاملوه زمنا ، فى معسكرات التـــدريب مضى الوقت كله عليهم معا ، فى دورات المشى الطويلة عبر الصحراء ، يضحكون ، يتحدثون عن الضباط ، عن الباشجاويش وقسوته التى لايلمحون غيرها ثم رقته المفاجأة نحوهم عندما حزموا عتادهم واستعدوا للالتحاق بالوحدة يومها أقيم احتفال قصير بتخرجهم ، اصطفوا فى مربع ينقص ضلعا ، نزل الجاويش الى المدينة القريبة ، اشـــترى الحلوى ، أشرف على

توزيعها فى الأطبـــاف عند اعداد الميس ، عند باب المعـــكر وقف يرمقهم . أخذ سيف بن ذى يزن زمام المبادرة . عانقــه .. أقبلوا واحدا ، واحدا ، رصد فى عينيه دموعا ، عندما خرجوا معا فى دورية سير لمسافة مئات الكيلومترات بالصحراء الغربية ، دليلهم النجــوم وعلامات قليلة ترشدهم الى نقطة الوصول . توقف موج البحــر : اقترب مادا يده ، ضاما قبضته وكأنها ميكرفون اذاعى ...

سيداتى آنساتى سادتى ، على ناصية ما من الصحراء الغربية تلتكى ــ نلتقى ــ بمجموعة من المكاتلين ــ المقاتلين .

نكدر ــ نقدر ــ نتعرف بسيادتك ..

سليمان الحلبى ، أنا موظف بشركة النصر للبترول . متطوع .

أخ سليمان .. ممكن تعطينا فكرة عن بطولاتك ..

قتلت الجنرال كليبر .. ورجعت بأسير اسرائيلى ..

هايل .. برافو .. انت لكنت ــ لقنت الأعداء درسا لن ينسوه عندما كتلت ــ قتلت ــ الجنرال كليبر الصهيونى ...

يا أفندم الجنرال كليبر فرنسى .. قتلتـــه من مائة وسبعين سنة .. لا يختلف الأمر كثيرا .. تفضل اى أغنية ؟

وهنا يصيح أحمس الأول ..

انا كلبى ــ قلبى .. اليك ميال ..

يضحكون ، ينطلق موج البحر مغنيا وكأنه يلبى بالفعل ما طلبــه سليمان الحلبى وأحمس الأول . فى الصحراء يصيح أدهم الشرقاوى .. يا ربح الجبل .. تلقف هذه ..

يلتفت.. أدهم يمسك بدانة مدفع قديمـــة لم تنفجر ، كأنه على وشك القائها باتجاهه . تعلو يده ثم تنزل على مهل ممســكة بالدانة

حتى يضعها فوق الرمال . فى الليل عنـدما يستعد بعضهم للنوم .
ويبقى آخرون مستيقظون ، يتحدثون عن المدينة الكبيرة ، وازدحام
الشوارع فى المغيب ، يقوم البرق قائلا انه بمجرد انتهـــاء الدورية
ونزولهم أجازة سيمشى فى شارع سليمان باشا ، يتفرج علىالفتارين
المضيئة والفتيات الجميلات ، ثم يأكل فولا وطعمية عند الدمياطى .
هنا يقول موج البحر : أهذا كل ما تحلم به ؟ هنـــاك من ينفق ألف
جنيه فى ليلة واحدة . تساءل الصاعقة عن حقيقة ذلك ، وهل يمكن
صرف مثل هذا المبلغ فى ليلة واحدة . أكد موج البحر ان هذا ممكن
فى شارع الهرم ، استفسر الصعيد الأعلى عن حقيقة ما يقال حـول
أسعار المبيت فى فندق الشيراتون ، وهل تبلغ حقـا عشرين جنيها
للسرير الواحد فى الليلة الواحدة ؟ قال البرق ؟ انهـا تبلغ أكثر من
ذلك قال الصعيد الأعلى ، انه لو نام فى غرفة كهذه سـيظل يرتعش
طوال الليل . تساءل الفتى مهـران ، من الخوف أم من التكييف ؟
ضحكوا .. قال سليمان الحلبى هذا عالم غريب ..

لا يدرى ريح الجبل أين هم الآن ؟ ربمـا يتجمعون معا ، ربمـا
عاد بعضهم الى الوحدة . يود أن يرى أحـــدهم ، يشكو له برودة
الجبل ، خاصة برد العصاري المصحوب بالسكون القاسى ، يعـرف
ان الحركة تبلغ ذروتها فى الطرقات قبل المغيب ؛ حتى فى المعسكرات
النائية البعيدة تتخذ الحركة ايقاعا سريعا مع اقتراب الليل وكأنها
لمسات أخيرة يضعها الانسان على نهار مول . ينقل الجنـود أوانى
الطبيخ . يذهب البعض الى الحمـامات ليستحمون بعـــد طابور
الرياضـــة . يلعب آخرون الكرة . يستعد الجنـــدى المسئول عن
النادى لتشغيل التليفزيون . سكون عتـــاقة ينأى بالمدن الى عالم
آخر . يجعلها تبدو شاحبة كنسمة خفيفة نمت الى الحقول . لابد
أن كثيرين من الجنود عادوا الى زوجاتهم وأمهاتهم . يجلسون معهم
الآن . بعضهم خرجوا الى الطرقات مع أطفالهم . أو ذهبوا لزيارة

اقاربهم ، يحكون عن الحرب كذكريات . طومانباى خرج ولم يعد الى أمه منذ اربع سنوات . عندما مضوا اليهـا عال كل منهم هم اللقاء . ماذا سيقول وأى كلمات عزاء ؟ قال سعيد مهران انه يمكنه جز رقبة جندى عدو ، لكنه لا يطيق رؤية أم زميل ذهب ولم يعد . قال سليمان الحلبى ان طومانباى مات ميتة نحسده عليها « الهم والباقى علينا نحن » ، طلب منه سيف بن ذى يزن ألا يتحدث هكذا امام ام طومانباى . أن يراعى شعورها . لاقتهم عند الباب ، نحيلة ، قصيرة القامة ، ولى شبابهـا مبكرا قبل الأوان . يعرفون أن والد طومانباى رحل وهى فى الثالثة والعشرين ، تفرغت تماما لتربيـة ولديها . اشرفت على أشجار الفاكهة المملوكة لهم فى قرية الجناين ، جادلت التجار ، ناقشت الرجال ، رفضت كل من تقدم اليهـا ، امتلأ وجهها بتجاعيد وآثار العناء ، تلك العلامات التى ترى علـى وجوه الفقراء ومن قاسوا طويلا . .

« أهلا بحبايب ابنى . . » .

بدت متماسكة أكثر من القادمين لعزائها ، فكر ريح الجبل ، ما اقسى لوعة الأم التى تعيش موت ابنها بعد كل ما قاسته من آلام حمل ووضع وسهر لىال ، لم تبد أم طومانباى شـيئا من هذا ، بعد لحظات صمت دارت بعينيهـا فى وجوههم ، سألت عمن جاوره أو اقترب منه ؟ قال خالد بن الوليد ان كتفـه لامسـه طـوال العملية ، قال الحسين ان بصره لم يفارقه ، طلبت أن تسمع ما قام به ابنها ، تلاقت العيون فى حيرة ، ثم استقرت على سليمان الحلبى ، بدأ يحكى وهى تسمع ، أبدت اهتماما عندما قال أن العـدو أجهـد نفسه فى معرفة شخصيته لكثرة ما كبده من خسائر ، قال انه بينه وبين العدو دما كثيرا . برقت عيناها عندما وصـل سليمان الحلبى الى لحظة رفع العلم على الضفة الشرقية . فى أول عمليـة عبور تتم فى وضح النهار ، قال ان العلم مازال مرفوعا وجنود الموقع المقابل

خصصوا كمية من الذخيرة لحمايته ، وجنود المواقع القريبة يفدون لرؤية العلم الذى رفعه المرحوم أصغت صامتة ، وأبدت بعض الاستفسارات . ثم أطرقت لحظات ، رفعت راسها ..

البركة فيكم ..

أصرت على المشى معهم فى الدرب الصغير المؤدى الى طريق القرية العام ، عند انصرافهم قالت هامسة ..

طلوا على يا أولاد .. ولا تنسونى ..

انقبض ريح الجبل ، هذه الكلمات القليلة يذكرها الآن ، تجسد وحدة مرة بعد رحيل حبيب ، تماما كليل الجبل المقبل والذى لا راد له ولا مانع ، صار يزورها بانتظام ، فى المواسم الأعياد ، زارها مرارا سعيد مهران ، والحسين ، وسليمان ، وخالد بن الوليد ، والبراق ، والصاعقة ، وأول ضوء ، لكن ريح الجبل واظب على الذهاب ، يقص فى كل مرة تفاصيل مما رآه من طومانباى ، حكى أيضا عن ظروف اختياره لهذا الاسم ، وقال انه عاشق للتاريخ ، وهو الذى اختار الاسم لسليمان الحلبى ، وللحسين ، قامت الأم ، جاءت بصندوق كتب خشبى ، راحت تخرج كل كتاب بعناية ، تريه لريح الجبل ، أحيانا تمسك كتابا مقلوبا ، قالت ان المرحوم لم يبخل على القراءة بمليم ، وأحيانا قالت له ، ارحم عينيك لأن البيت لم يصله ضوء الكهرباء ، قلب ريح الجبل الكتب ، أعادت ترتيبها ، فى كل مرة تقول ، عندما تأتى فكأننى أرى المرحوم .

سيقول لها بعد أن يصله النداء ويعود انه يعتذر لانقطاعه عنها ، وأن أحوالها شغلته خلال حصار السويس ، ان قلبه حدثه بأنها لم تفارق الأرض سيطلب منها أن تسامحه لأنه لم يأت بسبب غيبته فوق الجبل ، لكنه لم ينسها أبدا ، فكر فيها كثيرا ، وتمنى لو أنها

دعت له بالسلامة ، سيقول لها انه حرم من نظرة الأم ولهفتها منذ وقت كبير ، سيحكى لها عن أيامه أيضا .

سيقول لأصحابه انه لم يفاجأ بقتلة طومانباى فوق الجبل . بهدوء احصى عددهم ، رأى معاطفهم الثقيلة بألوانها الزيتونية ، رشاشات العوزى القصيرة . البنادق الأمريكية سريعة الطلقات . كانوا محاربين من سلاح المظلات ، تساءل ، هل سيبقون ؟ بدا واضحا انهم دورية استطلاع ، حمل بعضهم أوراقا ، أمسك أحدهم دفترا عريضا يضم صورا جوية ، هذا يعنى أنه لا توجد لديهم خرائط لمرات الجبل ومدقاته ..

سيبتسم البرق قائلا ..

ومن أعد خرائط لعتاقة ؟ الآن دروبه محفوظة فى أذهان رواده..

سيكرر سليمان الحلبى سؤاله عن ذلك الدرب القصير الذى يصل الى مصر ؟

سيقول ان الجبل سيظل لغزا مستعصيا ، فى طفولته رأى عتاقة حدود الدنيا ، لا مدن وراءه ، لا صحارى ، يعيش به جن أخيار ، وجن أشرار ، الشمس تسكن فيه . السحب تنبع منه . مع تقدم عمره سمع عن الدروب الخفية التى لا تبوح بنفسها الا لمن تردد عليها مرات ومرات ، من يعرفها يصل الى أى مكان فى بر مصر . من يجهلها يهلك وهو على مرمى حجر من مصدر ماء ، أو مدق ترابى يؤدى به الى النجاة ، منذ ظهورهم لم يعد همه الوحيد مواجهة الشتاء فوق الجبل مرتديا أفرولا صيفيا ، بلا مؤن ، انما أصبح عليه أن يواجه العدو أيضا ، فى البداية لم يقل له النداء كيف يدبر مأواه وطعامه ؟ . فى صباه حلم بالوقوف فوق أعلى نقطة . لكن ما شغله طوال هذه الأيام العثور على أصلح مكان للعمل ، ما أقلقه ليس ظهور دورية الاستطلاع المعادية ، انما تلك الساعات الأخيرة

من الليل ، عندما يمتلىء الفراغ بشفرات جليدية تخز الجلد وتنفذ الى العظام ، لا يذكر من قال يوما انه لا يستطيع النوم طالما بقيت أطرافه باردة ، يبتسم ، من يتخيل نوعية البرد الذى ينزل آخر الليل هنا ؟ يفقد انفه أحيانا ، يدلكه بأصابعه حتى يعيده الى مكانه. مع البرد يزداد جلد الحذاء صلابة . فى بداية الليل يشع الصخر دفئا غامضا سرعان ما يتلاشى ، فى البداية تساءل ، كيف ستمضى الأيام هنا ؟ خيل اليه أنه لن يحتمل ليلة واحدة . ماذا سيقوم به ؟ لا يحتمل الأيام الخالية من العلامات . فى المدينة او التدريب أو خلف الخطوط يلتزم الانسان بمواعيد محددة ومهام معينة تكسب الأيام ملامح وسمات . تجعل هذا يوم اثنين وذلك يوم ثلاثاء ، لم يهتم بتدوين علامات تذكره بالأيام . عندما توالت الليالى عليه ، لم يتجمد ، لم يمت ، اختلطت عليه الساعات والأيام . كيف يدرك أن هذا النهار ثلاثاء وليس أربعاء ؟ أدرك أهمية ذلك عندما ظهرت دورية الاستطلاع المعادية ، ظهورها يوافق مضى سبعة أيام عليه ، فكر فى حفر علامة بسيطة على الصخر فى موضع معين ، لكن ربما لمحها أحد . يدرك أنها نتاج فعل انسان . جمع سبع زلطات صغار ، يضع واحدة فى يوم السبت قرب مكان نومه الرئيسى . اثنتين يوم الأحد قرب مكان البطاريات الاحتياطية ، الأيام تولى والبرد يتضاعف .

فى اليوم التالى لذهاب الدورية جاءوا . سيقول انه لن ينسى أبدا ملامح أول من رآهم قادمون للاقامة ، ليس لأنه يجتهد فى التقاط التفاصيل ، حتى لا يضطر الى استعمال اى نوع من التدوين المكتوب . انما لأنهم اول أفراد رآهم وعليه متابعتهم . أحدهم غطى رأسه بقلنسوة صوفية ، يبدو من تحتها شعره الطويل ، جندى آخر أسود اللون قدر أنه من جنوب افريقيا ، ثالث لم يزد عمره على سبعة عشر عاما . ذو الشعر الطويل يتولى القيادة . هدف ممتاز لقناص ، لكن الظروف لا تسمح ، اشار بيده مرات . حاول الاسود الانحناء واشعال سيجارة . لحسن

حظه انه لم يدخن طوال حياته ، بمعنى أنه لم يدمن التدخين فى ليلة حنة سويسية ، أو فى فرح أحد الأصحاب ، دخن سيجارة واحدة . لو افتقد التدخين لأضاف هذا متاعب اليه .

سيقول أن وجود العدو أثار اهتمامه . أدرك أنه بدأ يعمل . لم يعد الجبل خاليا ، الآمر يختلف عن عمله خلف الخطوط ، هناك الصحراء فسيحة كالبحر . هنا المسافات المستوية محدودة . اماكن المشى شحيحة . اقتفاء الأثر أسهل ، التعرض للرؤية محتمل اكثر . نسب الجبل تتغير . فى الليل يزداد ضيقا ويبدو مرتفعا أكثر ، ثم المفاجأة ، كل قمة تخفى المفاجأة . قبل مغيب اليوم فتح الارسال ، فرح ، أخيرا يعود اتصاله . فى الليلة نفسها قال المذيع بصوت هادىء ..

« الى ريح الجبل ، لمسنا آثارك .. ننتظر هبوبا أكثر ... »

ثم بدأت موسيقى . لم يصغ الا لحظات . بمجرد انتهاء النداء أغلق الجهاز . هز رأسه كأنه يخاطب شخصا غير مرئى ، أدخل الجهاز فى الجراب الكاكى . حمله بعناية وحذر الى مخبئه . فى نفس اليوم جاء الصوت الكريه . ان طائرة الفانتوم مقيتة الأزيز ، تثير غثيانا ، ربما روعى هذا فى تصميم محركها ، لكنها لا تثير الاحساس بالمطاردة الشخصية ، مثل الهيلوكبتر التى تطير متباطئة هدفها حركة الانسان فوق الأرض ، جرادة ضخمة معدنية ، جاء جنود كثيرون فى ثلاث طائرات ، الأولى من طراز سيكورسكى ، الأخرتان من طراز ــ ايلويت ــ ، استمرت المراوح المعدنية فى الدوران ، لم تتوقف ، وبدت دوائر من الظلال فوق الأرض ، اخرجوا صناديق متوسطة الحجم ، قرب السيكورسكى وقف ضابط القوة . مرة أخرى نظر بعينى قناص . فى مثل هذه اللحظات يتحول وجوده الى عينين ، الى ذاكرة ترصد وتعى . نصبوا خياما صغيرة صفراء مبطنة بمطاط أحمر يبدو أنه عازل للحرارة وللبرد .

نفخوا وسائد مطاطية ، أشعل أحدهم موقدا ميدانيا بآلة مستطيلة كمقبض العصا ، ابتعدوا عن الطائرة . دارت المراوح بسرعة أكبر. اهتزت الطائرات . مالت مقدماتها الى الأمام . أحس بضغط الهواء الذى أحدثه مرور الطائرات فوق رأسه عندما توارى فى حفرة ، منذ هذه اللحظة أصبح يعيش بينهم ، أحيانا يبتعدون عنه . أحيانا يقترب منهم حتى لا يفصله عنهم الا أمتار قليلة ، فى الليل يصغى الى صيحاتهم المفاجئة يحاولون طمأنة أرواحهم ، أو أصداء أحاديثهم الخافتة داخل خيام النوم ، سعال أحدهم ، أو غناء خافت يصمت فجأة عندما يتحول اتجاه الريح أو عندما يسكت صاحبه . فى صباح اليوم التالى طلب منه المذيع أن يعبر الوديان بقوة ، ألا يهمل شروق الشمس ، فى المغرب أرسل ريح الجبل وصفا دقيقا للقادمين الجدد ، قال ان ثلاث طائرات جاءت مع آخر ضوء . تم ابرار مائة جندى وثمانية ضباط أحدهم برتبة ميجور ، فوق القمة رقم (٣) جاءت سرية من جنود المظلات ، انتشرت الأسلحة الفردية ، رشاشات جليل ، مدافع الهاون ٨١ مللى . لدى القوة جهاز للرؤية الليلية ، كميات ذخيرة ثم تشوينها عند النقطة « هـ » قرب منتصف الجبل . تم نصب مطبخ ميدانى الى الشمال من ــ ك ــ ، وحمام ميدانى ، العدو يطلق مشاعل مضيئة ليلا بمعدل قذيفة كل ثلاثين ثانية لمدة نصف ساعة ، ثم يستأنف الاطلاق بفاصل زمنى قدره عشر دقائق . وأحيانا خمس دقائق عندما يتحول صوت الريح الى ما يشبه جرى الأقدام وحديث البشر ، يطلقون دفعات متتابعة من الرشاشات فى جميع الاتجاهات . يكفون تماما عند الفجر . تتخلل دفعات الرصاص طلقات حمراء كاشفة . فى تلك الليلة تلا المذيع رسالة موجزة . من الوادى الى الجبل ، قال انهم يتابعون العاصفة .

سيقول انه تمنى لو امتلك معطفا كاكيا ، طوال أيامه الجبلية يقمع أى رجاء بالأفضل ، ولكن عندما يثقل البرد ولا تكفى

الحشائش الجبلية سد جوعه الدائم ، يتخيل جمرا موقدا ، أو اغطية ، سقف حجرة ، تذكر رحلة مدرسية نظمت الى عيون موسى عند وقوف الطلبة آخر النهار منتظرين أوتوبيس الرحلة ، اصطفوا فى طابور عفوى ، كل منهم يحاول الاحتماء بالآخر ، أول فتى فى الطابور لم يحاول الاختفاء وراء أحد . نسى اسمه . قصير ، لم يرتد الا قميصا بدون بلوفر ، عندما اقترب منه سمع اصطكاك أسنانه . تصدى للريح وكأنه يثبت لزملائه أن نقصه سترة ثقيلة لا يؤثر عليه .

انه يكاد أن يرى زملاءه يتساءلون بعد عودته . كيف احتمل الشتاء كله فوق عتاقة ؟ كيف نام ؟

سيقول للحسين ، وللفتى مهران ، للبرق ، للعاصفة ، لخالد بن الوليد ، لسليمان الحلبى ، لأم طومانباى ، للصعيد الأعلى ، لأدهم ، لسيف ، انه نام منحنيا حتى لتلامس ركبتيه ذقنه . ساعات نومه غير متصلة ، بعضها فى النهار ، الليل فرصته للحركة الآمنة ، يتجمع فيه العدو . لا ينتشر ، سيقول انه غفا ذات ليلة فوق صخرة مدببة قريبة من حافة الجبل . استيقظ وللحظات قصار خيل اليه انه يرقد فوق وسادة ، ويظلله سقف ، ويصغى الى البرد فى الطرقات من خلال جدران ونوافذ مغلقة ، عندما رأى النجوم الكثيفة ، وأحس بالفراغ أدركته خيبة لم تدم الا للحظات ، فى تلك الليلة فكر طويلا فى صوت غامض سمعه خلف الخطوط فى سيناء ، وأصوات الصحراء محدودة جدا بالقياس الى أصوات الجبل ، لكن هذا الصوت لم يدر ما هو حتى الآن ، صوت مكتوم ، متقطع ، أنين مخلوق ضخم ، عريض ، هائل الحنجرة ، كأنه يصدر من كل مكان فى الصحراء ، أهو صوت غولة خرافية تتألم لسبب ما ؟ أم أصداء غامضة ؟ تدركه رعدة كلما فكر فيه . فى الليل زحف حذرا الى الشقوق الصغيرة حيث تتجمع قطرات

المطر ، الى الحشائش الجبلية ، الناظر من بعيد يخيل اليه أن الصخور مجدبة ، الاقتراب منها يكشف أنواعا من الزهـــور ، والحشائش ، والزهور الرقيقة التى لم تقطف ، تنمـو وتموت بعيدا عن يد الانسان . تأمل أنواعا لا حصر لها من السحالى الملونة والحشرات الغريبة ، وفراشات كبيرة لا تعبأ به اذ يمد يده محاولا امساكها . كثيرا ما تابعهـا أثنـاء تناولها طعـامها . بالضبط فى الساعة ١٣٠٠ . صوب منظاره عكس اتجاه الشمس حتى لا تنعكس أشعتها على عدستيه وتحدث بريقا يلفت الأنظار اليه . رأى بخار الشوربة الساخن ، أحس بطراوة الخبز المستطيل ، رأى يوما جنديا المـانى الأصل يقشر برتقاله ، رصد مكان تساقط قشور البرتقال حتى يزحف ليلا ويحاول التقاطها ، هذا الجندى ينهى طعامه عادة بسرعة ، أحيانا يمد يده الى أطباق زملائه ، يخفونها عنه بأجسادهم ، أو يزجرونه . يقوم آخر يبدو أنه فرنسى ، يبدأ فى غسل يديه بالصابون ، يتدفق المـاء من اناء البلاستيك برتقالى الشكل ، ينتهى بصنبور صغير لا يسمح الا لخيط نحيل من المياه بلا تدفق ، عليه كتابة لونها أحمر بالانجليزية تشير الى مصـــنع هولندى فى امستردام ، يطيل الفرنسى غسل يديه ، يتمضمض أربع أو خمس مرات . قصـير القامة ، النحيل ، لا يدرى ريح الجبل الى أى أرض ينتمى ؟ يبدو غير مهتم بغسيل يديه أو فمه ، البندقية سريعة الطلقات لا تفارق كتفه حتى أثناء تناوله الطعام ، أو خلال اضطجاعته داخل الخيمة ، شاب آخر يبدو أنه لم يتجاوز السادسة عشرة . لحيته لم تنبت بعد ، يتطلع الى أنحـاء الجبل كثيرا ، بل ان عينيه لا تفارقان الصخور البعيدة حتى عنـــدما يتحدث الى زملائه . أو يجلس بينهم ، يشد على شـــفتيه ، كأنه يتوقع حدوث شىء ما . فى الصباح تبدو خطواتهم أوسع ، يتحركون هنا وهناك ، يتفحصون الجبل ، يمدون لفات الأسلاك الشائكة ،

رصد ريح الجبل عدد اللفات ، ومواقع رص الألغام المضادة للافراد التى بثوها فى المدقات ، لا حاجة بهم الى ذرع الألغام المضـــادة للدبابات أو الآليات ، تضاريس الجبل موانع طبيعية ، لاحظ أنهم نثروا نوعا من الشراك الخداعية ، خاصة بالقرب من القمم ، شراك على هيئة علب مربى ، علب سجائر ، كاميرا ، أقلام حبر . استنتج انهم لا يحكمون قبضتهم على الجبل ، لا يمسكون بخفاياه. يتوقعون هجوما فى أى وقت ، يأملون فى التقاط أحـــد أو بعض أفــراد الدوريات المقاتلة ، أو رجال الاستطلاع هذه الشراك . فى الصباح يروحون ويجيئون بدون معاطف ثقيلة ، لاحظ أنهم يرتدونها عند تناولهم الطعام ، ربما لأن ما يتناولونه يسبب برودة الجسم وتراخى الأطراف . بعد الظهر لا يمكن رؤية أحدهم يمشى منفـــردا ، يتجولون فى جماعات ، اذا تصادف وتأخر جندى أو اثنان بخطوة أو خطوتين يتلفتون الى الجبل . يسرعون حتى يحاذون رفاقهم . كل منهم كأنه يحتمى بالآخر من طلقة مفاجئة قد تجىء ، تصـــل اليه أصواتهم مع اتجاه الريح نحوه ، ثم تبتعد عندما تولى الريح بعيدا عنه ، لاحظ وجود جوارب نسائية وملابس داخلية معهم . لكنه لم يرصد وجود أى امراة . مع اقتراب الليل يعـــودون الى الخيام . لمح أحدهم يكتب ، من ملامحه ، وتوقفه بين لحظـــة واخرى ، قدر انه يكتب خطابا ، أو شيئا خاصا ، لاحظ أن قائد القوة يمشى دائما بين جنديين ، عندما يبدأ الليل الجبلى فى النزول يختفون كلهم داخل الخيام ، لا يبقى منهم الا المكلفون بالخدمات ، لا ينفرد أحدهم بنفسه ، يتجمعون . تعلو النداءات بالعبرية ، بالانجليزية ، بالفرنسية ، بلغات أخرى لا يعرف منها حرفا . حتى الخيام تبدو كأنها تتوارى فى بعضها ، رصد قدمين لجندى داخل خيمة منخفضة . حدد الخيمة التى يأوى اليها قائد المجموعة . لم يلحظ مرحا متبادلا بينهم ، ولم يسمع ضحكات حتى عنـــدما

يتجمعون داخل مراقدهم ، لم ير ابتسامة تصدر عن أحدهم فى وجه النهار ، الشفاه مضمومة ، الأكل بسرعة ، تجنب الصعود الى القمم ، ربما لابتعادهم عن مجال الرؤية الواضحة . لكن من الواضح أن مرمى نيرانهم يغطى تلك القمم .

سيقول أن أيامه الطويلة عرفت الفرح ، تمنى لو معه سعيد مهران او سيف بن ذى يزن أو أحمس الأول ثم البراق ، تمنى او جاءوا كلهم اليه ، فالفرح بحاجة الى آخر قريب ليظهر ويتألق ويبهج . لكنه فى وحدته عرف فرحه هو . الذى يبديه بدون انتظار رد فعل من آخر . فرح غامر كاد يدفع به الى المشى منتصبا على قدميه بلا انحناء ، بلا حذر ، أو القفز من أعلى الصخور إلى الوادى ، أو تحريك الأيدى والأطراف كما يشاء اذ لا أحد يرقب أو يمنع أو يلوم . فرح كالريح الجبلية الجارفة التى تهب عند الفجر . يختلف عما يشعر به من بهجة اذ يتلقى رسالة . او ينهمك فى ارسال معلومات يدرك أن هناك من يتلقاها فى نفس اللحظة .
حدث ذلك لحظة استطاعته تمييز صوت طائرة الميج ٢١ . فى البداية حومت صوب الجبل ، ثم ارتفعت فى خط منحن الى مركز السماء . بدت نقطة بيضاء متحركة فى الفراغ ، وعندما غيرت اتجاهها لمع جسمها المعدنى لبرهة كالبرق ، ثم بدأت تهوى ، كأن الطيار فقد كل سيطرة عليها ، أمسك أنفاسه . استقامت فجأة . بدأت طلقات المدفعية الخفيفة المضادة تخدش زرقة السماء بقبضات من دخان ظلت معلقة وكأنها من حجارة . قلق ، هل أضافوا مدافع جديدة فى مواقع لم يبلغ عنها ؟ دارت الطائرة فى اتجاه معاكس . تجنب الطيار المرمى المؤثر لمدفعية العدو ، ابتسم وحيدا ، انه شغله ، نتاج عمله . معلوماته . اختفى صوت الطائرة تماما ، هل ذهبت ؟ لكنه لمح الجسم المعدنى منخفضا حتى ليكاد يلامس سن الجبل ، اندفع فوقه بلا صوت ، ميز كابينة الطيار ،

وتقسيمات الجناحين ، بعد ابتعاد الطائرة علا صوبها مترددا بين الصخور ، هديرا مدويا بعشرات الأصداء . نطق الجبل وتوالت طقطقات المدافع المضادة للجو ، فبدت كمشاة يحاولون اللحاق بسيارة تجرى مسرعة ، بعثت فيه حركة الطائرة دفئا لايمت الى شهر أو زمن . كأنه رأى كل الأصحاب والأحباب . عانق الحسين. وشكا اليه برودة الجو آخر الليالى . ربت الفتى مهران على كتفه مبتسما ، « أنت لها » انحنى عليه سليمان الحلبى ، قبله ثم صمت. هكذا اعتاده اذ يعبر عن عواطفه فجأة ثم يسكت . ود لو رأى أفراد العدو كلهم الطائرة ، سينظر اليهم من مكمنه آخر النهار متباهيا « لقد حلقنا فوقكم » ، هذه الطائرة تضم شابا جدعا ، مراوغا ، جريئا ، ربما التقيا من قبل ربما احتكت أيديهما فى طريق عام بالقاهرة . بالسويس . ربما تواجها فى قطار ما . ربما مرا فى شارع واحد يوما ، فى نفس اللحظة يود لو تعرف اليه دقيقة فقط . يحدثه عن البهجة التى غمرته أياما متتالية بعد تحليقه . لكنهما ربما لن يلتقيا ولن يعرف اسمه حتى . ستؤكد الصور الملتقطة ما أرسله من معلومات ، سيقول الطيارون ان دقة تحديد مواقع المدفعية المضادة جعلتهم أكثر أمنا .

طوال اليومين المتتاليين لتحليق الطائرة ظل بصره يروح ويجىء الى الفراغ ، متوقعا ظهور الطائرة فجأة . امتلأ الجبل بهديرها أو انزلاقها الصامت . لحظات الفرح الأخرى جاءته ليلا. عندما اتخذ وضع الجنين لينام . عندما تحسس ركبته العارية ، برد ديسمبر القاسى تبدد عندما اصغى الى طلقات متبادلة ، حوار نارى . العدو لا يطلق النيران من طرف واحد ، قفز واقفا ، التف حول الصخرة التى يحتمى بها من الريح ، صعد مدقا صغيرا ، فى نهايته يشرف على موقع العدو ، ميز طلقات الجرينوف

الكلاشنكوف ، طلقـــة آر ـ بى ـ جى اخترقت الظلام وضجيج
الأسلحة الأخرى ، طلقات حارقة أصابت الخيام ، اشـــتعلت
جدرانها ، تناقلت الرياح ألسنة اللهب فيما بينها ثم استقرت فى
اتجاه واحد ، تتراقص ألسنة نارية على الصخور البعيدة ، خيل
اليه انه لمح حيوانا يعدو ، صرخات تعلو ، بعضهم يندفعـــون فى
اتجاهات مختلفة ، تدافعت الدماء الى راسه . تبدد آخر ما تبقى
من الاحساس بالبرد ، انفجارات حادة ، ثاقبة ، قبضات حمـراء
تتطاير فى الهواء متوالية كالصواريخ النارية ، عرف الرجال اماكن
تشوين الذخيرة . لم يخطئوا واحدا ، يقرأون الظلام ، قبض بيده
على حافة الصخر ، على ضوء اللهب يمكنه رصد المفاجأة التامة ،
المباغتة ، توقف جندى يهودى ، طويل ، رفع يديه الى أعـلى ؛
بدا فى اللهب بلا ملامح ، ظل أسود متحرك ، صراخ ، صرخة قصيرة
ظل آخر يندفع فى اتجاه ريح الجبل ، يبدو أنه فقد القدرة عـلى
التحقق من الاتجاه ، يندفع الى الاتجـــاه المعاكس ، يسقط الى
الأمام وكأنه يرتمى على شىء محاولا الامساك به ؛ تختلط الظلال ،
الصرخات ، أدرك أن اقتحام الموقع يبدأ . هذه الظلال التى تتداخل
تبدو فى لهب النيران كمخلوقات قدمت من عالم غريب . من يدرى
ربما يهاجم الحسين الآن . ربما يقتحم الفتى مهران خيمة أرسل
وصفها منذ أيام ، سيف بن ذى يزن ، خالد ، الصاعقة ، البرق ؛
البراق ؛ كلهم الآن فى الجبل ، عتاقة فى هذه اللحظات فيه آخرون
يعرفهم ، يتكلمون مثله ، اذا صمت لحظة قد يدرك الواحد منهم
ما يجول بخاطره ، ربما اقترب منه ، احاطه بيده متسائلا « لماذا
تبدو مهموما ؟ » ملامحهم يعرفها جيدا ، لا يوجد بينهم الماــانى .
فرنسى ، مجهول الجنسية ، سليمان الحلبى يتقـدم الرجال ؛
يتقن القتال المتلاحم حتى ذاعت شهرته فى كافة وحدات القتـــال
الخاصة ، أيدى ترتفع ، هل تضوى الخناجر فى اللهب المتزايد ؟

يعرف سليمان الحلبى أحوال الرجال أثناء العملية ، اندفاع سعيد مهران ــ وبسالة الحسين ، وقدرة البراق الفائقة على التنقل السريع مطلقا نيرانه من مواضع عديدة . قدرة الفتى مهران على استعمال السلاح الأبيض ، دقة ادهم الشرقاوى المخيفة فى اصابة الهدف ، اذ يتحدثون عنه يقولون : «الطلقة منه تساوى رجلا..» آه لو اندفع مناديا كل منهم ، سيقول انه لم يشعر أنه موثق الا فى هذه الليلة ، انتبه الى نفسه عندما استنشق رائحة بارود قوية جرحت صدره . سعل ، تابع الاقتحام مفتوح الفم . لو عرف أى طريق سيسلكونه عند العودة . فقط يبادلهم الكلام لحظات ثم يولى ، يعانق الحسين ، يشد على يد سليمان الحلبى ، يقول له « كل شىء تمام يا افندم » . هل يتمركزون بالجبل ؟ هل يختبئون باحدى مغاراته ؟ هل يعرفون بوجوده ؟ هل يحملون اليه مددا ؟ هل فى خطتهم الاتصال بهم ، لو رافقهم قليلا ، عندما ينظرون الى أفروله الصيفى . الى تمزقه . الى اتساعه عليه اذ نحل جسمه ، سيخلع البرق معطفه ويتركه له . سيقدم الحسين اليه كل ما لديه سيقول أنه اعتاد برد الجبل وطعم حشائشه سيحاول منع ترقرق دموع فى عينيه حتى لا يمضوا متأثرين .

لم يستسلم طويلا لأفكاره ، عليه عمل يجب أن ينجزه فى ظروف مختلفة ، عند الفجر استمر جنود العدو يطلقون مدافع رشاشاتهم وقذائف الهاون فى كل اتجاه ، اضطر الى الانبطاح اكثر من مرة ، انفجار دانات الهاون فوق الصخور الحادة يدفع بالشظايا الى مسافات بعيدة . زحف ، جرحت ركبته . لم يتوقف ، يعرف أن فرصته فى استطلاع الموقع حتى اول ضـــوء ، مع بداية النهـــار سيحاولون حصار الجبل ، مع الضياء الأول رأى الخيام المحترقة واحصى عشر جثث ملقـــاة متباعدة ، بدا بعضها وكانها اجســـاد آدمية لم تستيقظ بعد ، ظهر جنديان يحملان نقالة عليها جنـــدى

مبتور الساق ، يصرخ .. آه .. آه .. وبدا صوته نحيلا ، متسلخا ، غريبا فى بداية النهار الجبلية ، من خلف صخرة ظهر جندى آخر يستند بذراع واحدة الى أحدهم ، ثمة بقع سوداء فوق الأرض ، وآثار مادة كيماوية لاطفاء الحريق . وصناديق ذخيرة فارغة . أدوات طعام منفرطة . حقائب طبية ميدانية مفتوحة ، شرائط ذخيرة لمدفع « جليل » الرشاش متناثرة لم تمس، مع بداية تزايد الحركة فى المدن البعيدة ، أبرق ريح الجبل الى الوادى رسالة عاجلة ، اشتعلت النيران فى مركز القيادة . ثلاثة عشر قتيلا . ضابطان جريحان . ثلاث طائرات من طراز «ايلويت» نقلوا عددا من الجرحى ، تدمير الموقع . مركزا لتشوين الذخيرة. مركز القيادة .

أدرك أنهم سيقلبون الدنيا بحثا عنه . بدا أمامه اكثر من تصرف . اما اختفائه فى مكان شديد القرب من الموقع ، او ابتعاده الى مكان قصى يمكنه ممارسة عمله منه . بدا قربه أكثر عرضة للخطر وعائقا بالنسبة لاتصاله المباشر . قرر الاتجاه الى القطاع الجنوبى من عتاقة . سيجمد حركته يومين . ثم يعود أشد قربا. قبل تحركه ألقى نظرة على الأسلاك الشائكة المقصوصة . يرصون الجثث الى جوار بعضها ، تعلو فجأة صرخات حادة ثم تنقطع فجأة . يظهر جنديان يحملان ضابطا برتبة ملازم فوق نقالة . يرفع يديه وكأنه سيمسك بشيء ما ، الحركة سريعة مذعورة ، اختل ميعاد الافطار اليومى الثابت ، فى تلك اللحظة بدا كأنه يلمح معنى غير مرئى فوق الموقع كله . معنى أحسه من قبل . لكنه لم يجد التعبير المباشر عنه . انه أمام عدو ، من خلال حركتهم ، سحنهم ، متابعته لأحاديثهم اليومية ، لطريقة أيديهم فى التلويح والاشارة ، تناولهم الطعام ، ثم ما لحقهم من اضطراب ، تدمير ، هذا عدو . وهل يبدو المعنى جديدا ؟ ربما سخر منه أدهم الشرقاوى لو سمع أفكاره. سيقول ريح الجبل أنه هاجم العدو من

قبل فى الليل . فى وضح النهار ، قضى خلف الخطوط اياما طويلة ، لكنه لم يعايش العدو بمثل هـذا القرب ، لم يتابع ملامحه بمثل هذه الدقة . لم يرصـد نظام حيـاته ثم اختلالها مثلما فعل فى عتاقة . خلال الهجوم لا تتاح الفرصة للرصد المتأنى ، يجرى كل شىء بسرعة البرق . فى ايامه الجبلية رأى تلك السحن الغريبـة عنه . أصغى الى الألسنة المعوجة . مهما جرى فلن يقف أحدهما أمام الآخر ويتركه يمضى ، سيحاول كل منهمـا القضـاء على الآخر ، هـذه الخيام المنصـوبة ، الأسلاك الشـائكة ، الشراك الخداعية ، المعدات المطاطية ، المجمعة من كل عواصم الدنيا ، كل هذه الطلقات والفوهات والأحاديث المتبادلة عبر أجهزة اتصالهم . كل هذا ، الغرض منه ادخال قطعة حديد ساخنة الى جسـده . الى جسد الحسين ، الى أحمس الأول ، الى سيف ، الى سليمان الحلبى الهادىء ، الواثق ، الموحى ، الى عبد الله القلعاوى ، ربما يعرف العدو بعضهم ويجد فى أثرهم . عندما ولى وجهه تجـاه الجزء الجنوبى لازمته فكرة أن هؤلاء .. عدو .. حامت طائرات الهيلوكبتر كما توقع ، عادة لايغير موقعـه الا مع مجىء قـوات جديدة للعدو ، يغيرون رجالهم فى الجبل كل سبعة أيام ، لا يكاد يحفظ ملامح القوة حتى يتم تغييرها .. ايام وصولهم الاولى تتزايد طلقاتهم ، يلتزم الحذر لأن أفراد القوة الجـدد تنتابهم رغبة فى اسـتطلاع ما يحيطهم ، يكثرون من الحـركة فى اليومين الأول والثانى . ثم يتصرفون بتلقائية أكثر مع اليوم الثالث ، لم يدر الى أى اتجاه مضى سليمان الحلبى والرجال ؟ لم يحقق اتصالا بهم ، ربما التقطتهم طائرة هيلوكبتر . تناولوا افطارهم الساخن فى ميس القاعدة . بعد تقـديم تقاريرهم عن الهجوم يشـيدون بالمعلومات التى يرسلها ريح الجبل ، من خلالهـا عرفوا المداخل الخالية من الألغام الى القاعدة . معرفتهم أماكن النوم والخيام

الخالية المنصوبة بغرض الخـداع ، من موقعه الجنوبى عمل فى نفس اليوم . وجه رسالة من ريح الجبـل الى الوادى . أجرى العدو سلسلة من التفجيرات بغرض انشاء موقع ملاحظة جديد. تم تدعيم القوة بسرية من جنود المظلات . تقوم الهيلوكبتر المسلحة بدوريات منتظمة فى السادسة الا عشر دقائق . التاسعة . العاشرة والنصف . الرابعـة مساء ، لم يطر الطيـارون على ارتفـاعات منخفضة ، حوالى الثامنة مساء سقط المطر فجأة ، بغزارة ، وبدا صوت اصطدامه بالصخور كأنه صدى لطلقات بعيدة . انكمش الجبل ، وتحركت السحب بنشاط فى المساء ، حجبت النجـوم الكثيفة ، ولامس بعضها قمة عتـاقة . اقتحم البرد عظـامه فى موجات متتالية حتى لامس نخاعه ، قطرات المطر كأنها تسقط فى قلبه . بدأ الماء يتجمع فى خيوط تتخذ طريقها بين الصخور محدثا خريرا ، غامت عيناه . بدأ فى أذنيه وشيش منبعه داخل رأسـه مصحوب بصـفير نحيل حاد متصـل . هل سيموت ؟ فكر فى الجهاز . لحسن حظه انه يحفظ الشفرة ، ستروح معه ، عنـد منتصف الليل خف الوشيش . أصـغى ، أهوالوهم ؟ هل بدأت التخيلات ؟ ماذا اذن ؟ فى بداية الليل ظن الموت قريبـا وها هو يعيش ، ويأمل فى قضاء العديد من المهام غدا ، وبعد غد ، لا .. ليس هذا وهما ، الجبل يردد الصدى الذى اخترق المطر ، ثمة نداء يطلقه جندى ما ، فى البداية بدا قصيرا موجزا ، وعندما تكرر ازداد طولا ، زحف فوق الصخور المبللة بالمياه . ود لو اخترقت عيناه السواد . حتى ضوء النجوم الباهت توارى خلف الغيوم الثقال ، انتظر حتى يتكرر النداء مرة ثالثة ، ثم يحاول رصـد اتجاهه ، سيثبت فوق أعتى الصخور اليه ، سيحذر صـاحب الصوت أولا من الصياح لأن العدو فى الجبل ويرصد الخطوة . والهمسة . ثم يزوده بما يطلبه من معلومات ، يتحدث ، يتكلم ،

يقول الفاظا ويلقى ردا ، ويتأمل ملامح مألوفة ، سيتمنى لو أن لديه ما يفيض ليعطيه ما قد يحتاج اليه ، لكن .. سيرى ابتسامة الود ، ثم العناق الذى يبدد البلل ، والبرد الكاوى . متى يجىء النداء الثالث ؟ لماذا تأخر فى رصد مصدر الصوت ؟ لماذا لم يتتبعه بعد أول نداء ، يلوم نفسه ثم يصغى ، أين ، متى ، حتى الفجر لم يصغ الى أى صوت ، ربما عثر زميله على من نادى عليه . قابل النهار بخيبة ، قرر التجول فى لحظات اشراق الشمس الضئيلة لتجفيف ثيابه ، خاصة انها التصقت بجسده ونفذت رائحة القماش الى أنفه . ولاستطلاع مواضع نمو الحشائش التى يمكنه أكلها ، سيصف لزملائه فرحته عندما رأى قشرة صفراء مستقرة بين الصخور كالنداء ، كالرسالة ، كالشفرة التى تطلب حلا ، قشرة ثمرة يوسفى . دار حولها على أربع ، بالتأكيد ليست شركا خداعيا ، كلها فى متناول بصره . لا تتصل بشىء قريب أو بعيد ، لا ينمو اليوسفى بهذا الحجم الا فى شتاء مصر ، ومصر فقط ، أحد الرجال ألقاها ، ربما أثناء تجواله ، خلال قيامه بمهمة ، التقطها بسرعة ، ضمها الى يديه . بسط راحتيه . تأملها ، تشممها ، قضم قطعة منها ، بدا الطعم الحامز غريبا فى فمه ، دار بعينيه حوله ، بعد عشر خطوات قطعها منحنى الظهر لمح ثلاث بذور ، لكنه لم ير أثرا بعد ذلك ولمسافة اكثر من كيلو متر فى اتجاه الوادى ، والى طريق المدينة ، فى هذا اليوم فاجأته الوحشة مع مجىء الشفق الى السماء الصافية المغسولة بالمطر . سيقول انه احتمل ، سيدور الحديث بين زملائه داخل مقهى بين ضجيج لاعبى الورق . مرور السيارات فى الطريق . دوران الملاعق فى أكواب الشاى . قرقرة النراجيل ، سيتابع حركة الناس فى الطرقات ، ايقاع الحياة فى الأماكن الآمنة . وحركة الحياة التى لا تهددها أخطار ، ولا تنوء فوقها وحشة جبلية ، سيصغى دائما

الى الراديو فى نفس الميعاد ، ربما جاء النداء بعد حين . بعد سنة . بعد عشر سنوات ، بعد أربعين عاما .

من الوادى الى ريح الجبل ...

عندئذ يفارق امن المدن . يرحل الى اى مكان يطلب منه التواجد فيه . سيقول انه قبل صعوده عتاقه لو عرضوا عليه قضاء ليله واحدة مقابل ألف جنيه لرفض ، وها هى الايام تتجاوز المائه ، هل سيفتح نافذه بيته يوما ويتطلع الى عتاقه الباقى ابدا ، عتاقه الراسى ، ويسأل نفسه ، هل قضيت كل هذه الايام الشتويه فوقه ؟ عندما يسألونه عن اشد ما أوجعه ، سيقول ، خفوت النداء خلال الأيام الاخيره ، لكنه لن يسترسل فى سرد أوجاعه ، سيغير الحديث . سيبعث الضحك الى قلوبهم ، تماما كما حدث أثناء التدريب . سيقول اذا استمع الى نكته او حادثه طريفه يدخرها ، يجهد نفسه فى تذكر تفاصيلها ، يحكيها لزملائه فى المعسكر ، سيقول انه أثناء استطلاعه للقطاع الجنوبى من عتاقة ، توقف فجأة ، توارى فى شق ضيق بالجبل ، ثم عاود النظر ، أمامه ، باتجاه الوادى ، على بعد حوالى نصف كيلومتر ، فوق الصخور النارية المدببة الحادة استقرت عربة مجنزره ، تقف بمواجهتها ، كيف جاءت الى هنا ؟ لا يمكن للجنزير صعود هذا المنحدر الوعر . ولا يمكن أن يتحرك فوق هذه التضاريس الوعرة ؟ ماذا .. هل ينصبون له كمينا ؟ أهذه عربة هيكلية جاءوا بها للتضليل ، ضيق عينيه . لم يخطىء ، فعلا عربة مجنزرة ، تقف هامدة ، خالية من الحركة ، لا يوجد جندى واحد حولها أو داخلها ، هل أنزلتها احدى طائرات الهيلوكبتر . متى . أدركته حيرة . بدا الجبل كله لغزا مستعصيا على الاستطلاع أو الاكتشاف يفاجئه كل لحظة بما هو غير متوقع . هذا الصمت الذى تغرق فيه العربة يحيره . ربما يكمنون بالقرب منها ، ربما تحقق

خلوها ، عندئذ يمضى اليها ، يفتشها ، ربما عثر على شيء ، تسلق المرتفع قفزا ، غابت العربة لحظات عن عينيه ، بدت الظلال ثقيلة لها قوام ، تنأى بالعالم عنه . كأنه أفلت من جاذبيــة الأرض أو سبح فى فراغ ، عندما أطل من بين الصخور ليرصــد العربة كاد يضحك .. ما ظنه عربة مدرعة ليس الا صخرة نحتتها الطبيعــة بعناية ، سوت أطرافها حتى لتبدو من بعيد كمجنزرة ، قطعة من الصخر الرمادى المصقول يختلف صخره عن طبيعة المكان ..

سيقول انهــا ليست المرة الأولى ، فأثنــاء تطلعه من خلال منظاره المقرب ، رصد بقعة سوداء ضخمة فى الوادى ، بقعــة ثابتة . مســتديرة الشكل ، حار فى تحديدها ، وبعــد لحظات اكتشف أنها نقطة سوداء التصقت بزجاج المنظار المستدير ، خفق قلبه . هل بدأ بصره يرصد ما هو غير موجـــود . أن دوارا يباغته على فترات متقطعة . لكنه لا يبالى . يمضغ بعض الحشــائش الجبلية الطرية التى تفرز عصيرا غليظ القوام كالصمغ ، تدب فى عروقه حرارة ، تمتلىء معدته بالعجينة الخضراء الثقيلة ، ربمــا احتاج وقتا حتى يستعيد قدرتها على هضم الأرغفة ، والخضار المطبوخ ، واللحم ، والحلوى ..

فى هـــذه الامسية الآتية التى لايدرك متى تجىء ، سيسأله سعيد مهران مداعبا :

والنساء .. وماذا عن النساء ؟

لن يدركه خجل ، لكنه سيقول انه لم يفكر فى امرأة معينـــة بالذات ، ولم يستعد حوارا جرى ذات يوم ، ولم توجعه ذكرى أمسية ناعمة . عندما يتحول كيان الانسان كله الى توقع وانتظار، عندما يعيش الجسد حالة ترقب دائمة ، لا يدرى متى سيصطدم بالعدو ؟ لا يدرى الى أى حد سيقاوم البرد والمطر والجوع ، فلا

مجال للرؤى الناعمة ، سيصمت قليلا . يعرف انهم يصدقونه ، كلهم قضوا فترات طويلة خلف الخطوط ، الحسين أمضى ثلاثة شهور بصحبة البراق يستطلع ما حول شرم الشيخ ، سليمان الحلبى قاد دورية قتال هاجمت محطة رادار غربى رأس سدر ، ثم اختفوا شهرا حتى عادوا الى الوحدة . لكنه سيكون صريحا معهم . سيقول .. « هل تذكرون عندما خرجنا الى القناطر الخيرية معا ، تذكرون اننى تغيبت عنكم وقتا .. » . فى هذا اليوم أثناء تمدده تحت شجيرة خضراء تلقى حولها ظلا ، رصد فتاة نحيلة ، متوسطة الطول ، شعرها ناعم كليل احكم اطفاء كل ذرة ضوء فيه . وجهها محدد الملامح ، متسعة العينين ، جمالها برى ، صريح ، اقتحمه اقتحاما . لم يدر أين رآها ؟ اتشبه نجمة سينمائية أجنبية رآها فى صباه ؟ أتشبه خيالا حلم به ؟ لا يدرى لكنه وجد نفسه يقوم ، واتته جرأة كلحظة الاقتحام التى تنأى فيها كل الاهتمامات والأفكار التى لا صلة لها باللحظة ، غير ان مشاعره ارتجفت وقتئذ عندما تتبعها ، طريقة مشيها أعجبته . كأنها تخطو على أطراف أصابعها ، يدها تعبث بعقد بسيط تدلى حول عنقها الذى بدت مساحة كبيرة منه ، زرار القميص الأعلى تركته مفتوحا باهمال ، احست ان هناك من يتبعها ، رمقته بعينين سوداوين كعيون الغجر ، وخيل اليه أن شفتيها المحددتين صرحتا لابتسامة بالظهور ، لم تفارقه لحظة الاقتحام . تحدثت الى بعض صديقاتها ، وقف يرقبها من بعيد ، استنتج انها جاءت الى الحدائق فى رحلة جماعية . التفتت ضاحكة ، غاصت داخله بعنف ، مشت بمفردها بعيدا عن رفيقاتها ، اقتفى خطواتها ، تحت شجيرة قريبة من النيل قعدت فجأة ، استندت بظهرها الى جذع الشجرة ، واجه الجمال البرى المتألق والحمرة التى تنبع من ملامح الوجه كما ينبع الشفق من السماء البعيدة ، سألها أهى

من جامعة القاهرة ؟ قالت بايجاز كشفرة انها من الاسكندرية ؛ لا يدرى لماذا خفق قلبه عندما قالت ، الاسكندرية ، ربمـا لأنه يفكر فى المدينة كهدف للراحة ، كثيرا ما فكر فى الذهاب اليها مع زملائه ليلة واحدة . يرى البحر الممتد الآمن ، البحر المختلف عن الخليج المحدود بشاطئين يقعان فى نطاق النظر ، قالت ان اسمها « أروى » ، كأنه يخترق نطـاق الدفاعات الأولى ، الجملة تلى الجملة ، وتجىء لحظة قريبة يمشيان فى بريق هادىء ، يمسـك يدها ، ترمقه بعينيها الواسعتين ، فجأة قامت كالبغتة ، لوحت بيدها . توقف ، لم يمض خلفهـا ، فى اليوم الأول بدا ماحدث عبثا صبيانيا لا يليق به . وفكر أنه أخطأ ، ولن يقص ما حـدث لانسان ، لكن فى الأيام التالية فوجىء بطيفها يقتفى اثره . كلمـا استدعاها الى ذهنه بدت ملامحها الصافية كسماء صالحة للطيران واضحة ، يخفق قلبه ، يدركه حنين غامض الى لقـاء رهيف . وهمس ناعم . وأشواق متبادلة ، وانتظار حلو ، ولقـاء حار ، ملامحها تمثل كل ما تعد به الحياة الآمنة . فى الجبل جاءت اليه من كل اتجاه ، فى لحظة معينة اتكأت على كل الصخور الوعرة ، المجدبة ، القاحلة ، زرعتها بابتسامات لا تحصى ، ورقة لا تبين ، وكاد يسمع صوتها يهمس ، أروى ، لو خطا خطوات لـ .. او امتد الحديث ، تساءل عما تفعله الآن ، ورآها تجلس فى حجرة ، أو تمشى فى طريق ، او تتأمل البحر . عندما ألحت عليه فى هـذا القطاع الجنوبى خيل اليه أنه تجاوز حياته العادية بمراحل ، وان ما جرى جرى ، وما يفكر فيه حدث فى تاريخ مضى ولا يبعث اليه الا الأسى .. حاول غض البصر عن ملامحها وكأنه يغلق أذنيه عن نداء ناعم يستهدف التفاته الى الخلف ، وهلاكه فى الوديان ، فى الليـل المثقل بالنجـوم بدأ القمر رقيقا يشف عما وراءه ، وفوق حافة الجبل ، على شاشة السماء رصد ثلاثة حيوانات قدر انهـا

دئاب ، تمشى فى طابور ، أهـــذا اذن مصدر العواء الذى يخترق احتشاء الجبل ؟ . انتبه الى همسات النجوم الخفيـة ، تأكد أن للنجوم لغة ، وعيونا ترقبـه من خلالها ، رصد نفطا مضيئة تتحرك فى السماء ، بعضها يظهر كل ليلة فى ميعاد ثابت ، أقمار صناعية ، من ميعاد مرورها يمكنـه تقدير الوقت بدون النظر الى ساعته . لا يحتاج الى أى تنبيه ليوقظ ، يكفى اغماض عينيه وقرار منه بأن يصحو بعد نصف ساعة ، لا يتجاوز الوقت الذى حدده لنومه بدقيقة واحدة مهما هاجمه التعب وتزايدت وحدته ، اذا صدر صوت لا ينتمى الى الجبل يفتح عينيه فورا . لو تغير ايقاع المطر لو تحول الى سيل ينتبه فورا ، بدا كان هنـاك حواسا جديدة اكتسبها خلال هذه الأيام المتعاقبة ، المتوالية فى اصرار لا يوقفه الجبل ، حواس تجعله ينحنى فجـأة ، وبعد لحظات تهدر طائرة هيلوكبتر ، يدرك اقترابها قبل أن يسـمع أى مقدمات لدوران محركها أو مراوحها ، هكذا قرر فجأة الانتقال من المنطقة الجنوبية للجبل الى القطاع الذى يتواجد فيه العدو ..

سيسألونه . هل فوجىء بانسحاب العـدو . سيقول انه فوجىء الى حـد ما ، فبالنسبة لما أبدوه من استعدادات ، وما أقاموه من منشآت قدر فترة طويلة لبقائهم . سيقول ان طائرات الميج أغارت ثلاث مرات على مواقع العدو قبل انسحابه . وأن صوت اطلاق الفيكرز جسد له شجاعة الطيـارين الذين هبطوا حتى كادت بطون الطـائرات تحتك بالصـخور ، طاردوا أفراد العدو . فى البدايه لاحظ انسحابهم من نقاط أنشأوها الى مواقعهم الرئيسية ، ثم جاءت طائرات الهيلوكبتر ، نقلت بعضـهم ، لم تعد بقوة بديلة ، رصد فرح الجنود وأحدهم يرقص رافعـا يديه .

تابعهم بدقة . ربما أخفوا بعض المعدات ، ربما عمدوا الى تشوين ذخيرة أو سلاح فى مخابىء سرية احتياطا لعودتهم . ربمـا تركوا

آلات دقيقة تحصى الحركات ، وتلتقط الصور ، بعد خلو الجبل منهم مشى حذرا . المدقات ملغومة ، من يدريه ما يحفل به الجبل؟ عاد يرقب مدينة السويس ، انتظر النداء ليعرف التعليمات التالية . حتى يجيء قدر الا يتحرك الا وثبا كعادته ، ولا يمشى الا حذرا ، ولا يتطلع الى السماء الا متخفيا ، استمر ينأى عن المدقات المعروفة بسهولة المشى فيها . من يدرى ما يبطنه الجبل، قبيل الغروب تقدم باتجاه الموقع المعادى ، تجنب وطء المواضع الرخوة ، مشى فوق الصخور الصلدة ، لم يعد فى حاجة الى لف حذائه بفرو الخروف حتى لا يدع أثرا لقدميه ، لكن الحذر لم يفارقه ، تأمل الموقع الرئيسى الذى يخطو فوقه لأول مرة . المكان الذى طالما مسحه بعينيه ، دار حوله ، هكذا رأى جنود العدو الأماكن التى كمن فيها . تحرك خلالها ، أدرك الى أى حد كان معرضا لأبصارهم . ابتسم . ألم ينجز مهمته ؟ لكن ما للنداء تأخر ؟ فى ضوء الغروب راح يتأمل البقايا ، زجاجات مياه فارغة، ملاعق بلاستيك ، علب بيرة مغلقة كتب عليها بالألمانية ، علب مربى ، علب سجق ، هكذا يبدو من الرسم الموضح ، تزايد انحناؤه ، حتى جلس القرفصاء ، دار بعينيه حول علب الطعام المحفوظ ، بقايا معجون أسنان ، هل يمد يده ، يلتقط احدى العلب ، يتذوق ما لم يقرب فمه منذ أيام طويلة ؟ أى جوع باغته أمام علبة سردين مستطيلة ، انه يحب السردين لكن أصابعه ظلت محيطة بخصره . ربما انفجر الهلاك كله ، على مهل قام واقفا ، تلفت حوله . هل يرقبه أحد ؟ علب ملقاة عمدا ، متناثرة فى المكان كله . بعضها ليوهم العدو ريح الجبل وزملاءه بالمستوى المرتفع لنوعية طعامه ، بعضها شراك خداعية . ترددت عيناه كثيرا ، اقتحمت نظراته ثم احجمت ، طعام العدو ، تلفت حوله ، عاد يسلك الممر الضيق ، تأمل نزول الليل وفى هذه اللحظات غزاه السكون

الوحش ، سينام حذرا ، ولن يستسلم لبرد الجبل ، اضــواء متناثرة تنبعث من مدينة الســويس . وكلما تزايد الليــل كلما اختفت ملامح البيوت وبدت الأضواء الباهتة وكأنها تسبح فى بحر من العتمة ، فى الصباح ينتابه نشاط ، يمضى الى كافة القطاعات، يقفز فوق الصخور ، يتوارى ، سيقول انه خلال تلك الايام واجه صعوبة فى المشى بقامته مفرودة ، يبلغ أقصى سرعته اذ ينــدفع منحنيا ، تكاد يداه ان تلامسا الارض الصخرية ، تردد امام بعض الكهوف العميقة لكن من يدرى بماذا يأتى به الجبل ؟

سيقول انه عندما رصد الجندى لم يصدق عينيه فى البداية، فوق أعلى الذرى ، حيث يبدو الوادى الى اليمين كوعاء ضخم من الصخر والنتوءات ، والى الخلف ، بعيدا ، يمتد خليج السويس نائيا تسبح فوقه سفن ، تبدو صغيرة ثابتة ، لا تتحرك ، لكنه لو عاود النظر بعد ساعة سيجدها اختفت ، فى هذه النقطة بالذات رآه . رصد ملابسه وملامحه وطريقة مشيه ، وظله الذى تحرك على الصــخور الرمادية ملاصــقا له . خفق قلبه . وثب فوق الصخور . قرر أن يواجهه من الأمام ، ربما لو صاح عليه من بعيد ينبطح الجندى ويصوب سلاحه اليه ، عندما يرى زميلا له يبدو امامه فجأة سيدركه فرح اذ يلتقى بأحد رفاقه هنا فى هذا الجبل. سيحاول تخفيف المفــاجأة الى أقصى حد . بعــد بريق اللقــاء يتعرفان ، سيبلغه ما يود نقله الى الوادى . الى سليمان الحلبى وبقية الأحبــاب والرجال . سيقدم كل ما يطلبه ، أى معــاونة ممكنة . قفز من فوق صخرة مدببة حادة الى المدق مباشرة ، دار حولهــا ، اصبح فى مواجهته . لم يفاجأ عنــدما شهر الجندى مدفعه ، لكنه فوجىء بالملامح ، يعرف الرجل ، لكن الذاكرة لم تسعفه فورا ، ابتسم بود . بدا انفعاله واضحا ..

أنا ريح الجبل ..

تراجع الجندى الى الخلف ، ادرك ريح الجبل أى مفاجاه مزعجة يمثلها بالنسبة لهذا المقاتل الذى يقوم بمهمة ما فى الجبل. رأى نفسه بعينى الجندى ، وقفته على أطراف أصابع قدميه ، انحناءته . لحيته الكثيفة ، عيناه الفائرتان ، كما أنه لم يدر أى لون أصبحت بشرته بعد أكله الحشائش الجبلية طوال هذه المدة كلها ..

لا تؤاخذنى .. أمضيت حتى الآن مائة يوم وسبعة أيام .. هز الجندى رأسه ، ما زال مباغتا .

يمكننى أن أقدم اليك كل مساعدة أقدر عليها .. اننى أعرف الجبل كما أعرف كفى ..

خطا تجاه الجندى ، فوجىء بزعقة ..

قف مكانك .

فوجىء بالصرخة ، فوجىء بايقاع الصوت الآدمى فى أذنيه . فوجىء بأنه يعرف الجندى ، قفز الاسم فجأة الى ذهنه كتمهيد نيرانى ..

انت صابر .. الباشجاويش صابر .. من استطلاع الدفاع الجوى ..

هز الجندى رأسه ..

لا ...

اقترب خطوتين ، لا يهمه اطلاق النيران عليه ، صوته يخرج مضطربا ، انه مفاجأ بايقاع الصوت الآدمى ، لا يبالى بجفاء الباشجاويش ، سيزول هذا حتما وبعد لحظات يتبادلان الود ، ويحكى كل منهما عن حكايته تماما كالمجندين الجدد فى تعارفهم

الأول الى بعضهم . يتراجع الباشجاويش بقدر ما يتقدم من خطوات ..

انني اعرفك .. جئت الينا في المركز للتدريب على وسائل الاستطلاع البصرية ..

بدا الجندى مترددا ، توقف عن التراجع ، ها هى اللحظات المنشودة تدنو . لكنه فوجىء مرة أخرى بصياح الرجل ..

ابق مكانك ..

توقف ريح الجبل .

أعرف أن موقفك صحيح ، تصرفك سليم تماما .. لكن يجب أن تسمعنى .. أنا أتكلم لأول مرة منذ مائة يوم وسبعة .. حتى تطمئن .. الم تقض فى المركز اربعة اسابيع .

قال الباشجاويش وهو يتراجع خطوة أخرى ..

صف لى المركز ..

سيقول انه ولى بنظره بعيدا لمدة لحظات ، ثم بدأ يستعيد كل التفاصيل ، مدخل الباب ، كشك الحراسة ، المزلقان الخشبى ، مكتب قائد سرية الحراسة الى اليمين ، وصف كل ما يمكن أن يراه المار من أمام المركز ، ثم ذكر اسم الضابط الذى اشرف على تدريب الجاويش .. سكت لحظة ، نظر اليه الباشجاويش . يغوص بأسنانه فى شفتيه ، هبت رياح باردة ، خفيفة لكنها حادة ، بحركة لا ارادية غاصت عنق ريح الجبل بين كتفيه ، هل يقف أمامه حقيقة رجل يعرفه . وأين ؟ فى دروب عتاقة ، للحظة خيل اليه آن ما رآه وهم . لكنه تحدث اليه . يراه . لو مد يده سيلمسه . لأول مرة يصغى الى صوت آدمى لا يأتيه عبر الراديو ، أو يصله مع هبات الرياح همسا من مواقع العدو ..

.. غير صحيح .. أنا لا أعرف ما قلت .. ولا أعرفك ..

سيقول للحسين انه لم يدر سببا لانكار الباشجاويش بعد كل ما ذكره . ربما أراد الاستزادة بذكر الأدلة . ظن أنه عبر حاجز الحذر الى الباشجاويش تأكد أنه هو صابر بعينه .

اسم غير صحيح .. ليس اسمى صابر ..

توقف ريح الجبل مكانه ، لا يدرى لماذا شعر بخيبة فجأة ، ربما لادراكه أن الحاجز لن يزول ، مهما فعل فلن يتحدث اليه الباشجاويش ، ربما يلتزم التعليمات بعدم الكشف عن شخصيته خلال مهمته فوق الجبل ، ربما يخشى شيئا ما ، لكن .. هل يدعه يفلت هكذا ؟ الانسان الوحيد الذى التقى به ..

يجب أن تسمعنى ..

يتراجع الباشجاويش .

لا أعرفك .. ابق مكانك ..

يزعق ريح الجبل

باشجاويش صابر ..

يصيح الباشجاويش والمسافة تتزايد بينهما ..

ليس اسمى صابر .. قف مكانك ..

يوشك أن يتعثر أثناء ابتعاده . يزعق ريح الجبل ..

انتبه خلفك صخرة ..

يتوقف الباشجاويش شاكا ، يلتفت بسرعة ، على مهل يستدير ، يختفى عند المنحنى ، يعلو ريح الجبل الصخور ، يتخلل الشقوق ، المدقات الصغيرة ، يشرف على الوادى كله ، والخليج ، يلمح الباشجاويش مبتعدا هناك ، أدركه دوار ، وغصة زحمت حلقة ، هل يدعه يمضى هكذا ..

أنا ريح الجبل .. قل لهم اننى هنا .. انتظر النداء ..
التفت الباشجاويش الى أعلى ، بدا كأنه قال شيئًا ..
ماذا تقول ؟؟

لم يجبه ، استمر مبتعدا ، سيقول لسليمان الحلبى أن هذا أوجعه ، ما آلمه أكثر انه فتح الراديو فى الميعاد ، تحدث مذيع ، تحدثت مذيعة ،

أصدقائى .. صديقاتى ..

يؤكد صوت ناعم أن ساعات كولمانت العصرية أدق آلات ضبط الوقت ..

يسجل ضيف أحد البرامج ، يقول .. انها لبادرة طيبة ..
فى محطة أخرى ينصح صوت غليظ المواطنين باليقظة والتزام الحذر ..

دار بعينيه فى الوادى ، اختفى الباشجاويش . عند العصر والسكون الموحش يهدده بغزوة . رآهم عند خط السماء . حيث تلتقى شواهد الصخور المطلة على الوادى بالفراغ اللانهائى ، قفز فوق صخور حادة يصعب المشى فوقها ، تأكد انه رآهم . أربعة جنود وضابط . مروا أمام صخرة معلقة ، خيل اليه أن الباشجاويش بينهم ، يبحثون عنه . قرر اختراق أقصر المدقات اليهم ، علت به الصخور ثم انخفضت ، عندما نظر الى نفس الموضع لم يرهم ، جاءوا اليه ، انهم على بعد خطوات منه ، سيبادلونه الحديث حتى لا ينسى الكلام ، ربما رأى فيهم ادهم الشرقاوى ، الفتى مهران ، البراق ، لكن أين مضوا ، الى أين ، الليل المقبل الذى لن تطلع شمسه أبدا . تلفت حوله ، حتما سيجيئون ، سيتقدم منه سليمان الحلبى ، ضابطهم الشاب ، سيقول ..

« أدوا التحيــة لمن قضى فوق الجبــل مائة يوم وازدادوا ســبعة .. »

سيقدمون اليه ماكينة حلاقة . ومعطفا . وصابونا ، لكنه سيأبى . لا بد أن يواجه كل زملائه ، سيرى انطباعهم الأول ، سيجهد نفسه ألا يبكى ، اذا لم يعرفوه ، سيبقى فى انتظارهم ، ربما جاءوا اليه الآن . لا يدرى متى سيجيئون ؟ ولا بأى أرض يموت ؟

« أدوا التحيــة لمن قضى فوق الجبــل مائة عام وازدادوا سبعة .. » .

فى الليل سيحاول تفســير لغــة النجوم . ربمــا تضمنت همهساتها نداءا خفيــا ، انه يتلفت حوله ، الســكون الموحش قادم ، حثيث الخطى ، يقوم ، يحبو على أربع فوق صخرة مدببة ، يقف عند أعلى نقطة فوق الجبل ، يحيط فمه بيديه . يزعق من فص الحنجرة مناديا :

« يا حسين ..

يا سليمان يا حلبى ..

يا أدهم ..

يا براق ..

يا سيف بن ذى يزن

يا صاعقة

يا ... كل الأحباب ..

أنا ريح الجبل ..

أنا ريح الجبل .. هل تسمعنى ؟؟

يونيو ١٩٧٦

صـــدر للمؤلف

١ ـ اوراق شاب عاش منذ الف عام

مجموعة قصصية ١٩٦٩ القاهرة

٢ ـ ارضى ـ ارضى

مجموعة قصصية ١٩٧٢ القاهرة

٣ ـ المصريون والحرب من صدمة يونيو الى يقظة اكتوبر

دراسة ومشاهدات ١٩٧٤ القاهرة

٤ ـ الزينى بركات

رواية ـ طبعة أولى ١٩٧٤ دمشق

طبعة ثانية ١٩٧٥ القاهرة

٥ ـ الزويل

قصص ١٩٧٥ بغـداد

٦ ـ الحصار من ثلاث جهات

مجموعة قصصية ١٩٧٥ دمشق

٧ ـ حراس البوابة الشرقية

طبعة أولى ١٩٧٦ القاهرة

(الجيش العراقى من حرب اكتوبر الى حرب الشمال)

طبعة ثانية ١٩٧٦ بيروت

٨ ـ وقائع حارة الزعفرانى

رواية ١٩٧٦ القاهرة

تحت الطبع :

١ ـ خطط الغيطانى رواية

٢ ـ اوراق شاب عاش منذ الف عام طبعة ثانية

٣ ـ جيش التحرير الجزائرى دراســة

فهرس

دار
الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
ت: تليفون ٣١٨١٠

المراسلات :

التحرير : ١١١٧ كورنيش النيل « ماسبيرو » تليفون ٩٧١٠٥٦

الادارة : ٢٦ شارع منصور « باب اللوق » تليفون ٣٣٩٧٦ ٣٣٩٧٧ (صندوق بريد ١٣٢٨)

الاعلانات : يتفق عليها مع ادارة المجلة تليفون ٣٣٩٧٨

هذا الكتاب

.. « حكايات الغريب » أول مجموعة قصصية تصدر من وحى حرب أكتوبر التى عاشها الكاتب المعروف جمال الغيطانى لحظة بلحظة على الجبهة المصرية ، وفى مواقع الصدام من واقع عمله كمراسل حربى لجريدة الأخبار ، قصص المجموعة تقدم أبطالها من عالم الحرب ، بشر مصريون بسطاء نعرفهم جيدا أصبحوا فى مواجهة الحدث البسيط أبطالا بكل مقاييس البطولة ، ومقاتلون فى القوات المسلحة جاؤوا الى الدنيا ليحاربوا من أجل مصر ، وآخرون يصمدون فى وجه الحصار المعادى ويصارعون أقسى الظروف الطبيعية .

يقدمهم المؤلف من واقع خبرته الانسانية الغنية بهم كبشر ومقاتلين ، ومعرفته أيضا بعالم الحرب التى استمدها من خلال عمله كمراسل حربى لمدة ثمانى سنوات على الجبهة المصرية ، ... على أجواء قصصه أبعادا وشمولا بلا ...

« حكايات الغريب » اضافة جديدة ... العربى ، وفتح جديد أمام القص... المصرية ، حيث تنتمى هذه المجمو... الحرب ..

« أحمد ... »

٢٥ قرشا